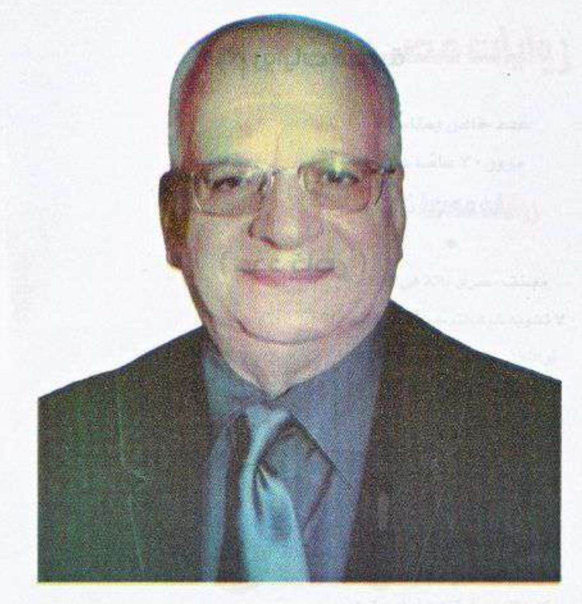
روايات مصرية

(عدد خاص)



د. أحمد خالد توفيق



مقدمة

ثلاثون ..!

ثلاثون عامًا مرت على بدء روايات مصرية للجيب، وهى تلك التجربة الفريدة من نوعها، التى قامت على خيال رجل واحد مولع بالاطلاع والمعرفة ومدمن للعمل الشاق، ويكره الأضواء ووسائل

الإعلام كأنها الوباء. نقول على طريقة أفلام جيمس بوند: « أنت تعرف الاسم وتعرف الرقم » .. إنه الأستاذ حمدى مصطفى .. والرقم هو ٨ و١٠ شارع ٤٧ بالمنطقة الصناعية بالعباسية. هذا هو المقر الرئيس لكن للمؤسسة عدة مقار وشبكة توزيع هائلة. إنها أضخم بكثير مما توقعت قبل أن أنضم لها.

لم أكن ممن بدءوا مع المؤسسة، وعرفت فيما بعد أن أستاذ شريف شوقى صاحب المكتب رقم ١٩ كان أول الكُتاب، ثم جاء د. نبيل فاروق ابن مدينتى وكليتى لتنهمر أعماله الأدبية كشلال. كنت قد تخرجت فى الكلية عندما جلب لى صديقى بعض كتيبات نبيل فاروق، فقرأتها واعترفت بأن الرجل حقق خطوة غير مسبوقة، فهو يخاطب سنًا أكبر ممن خاطبهم محمود سالم بمغامريه الخمسة وشياطينه الـ ١٣ الذين أحمل لهم كل تقدير، وكان يكتب بدقة واهتمام شديدين، كما أنه كان يعرف كيف يشوق القارئ. كان على أن أنتظر عدة أعوام إلى أن أتغلب على خجلى، وأقرر أن أجرب حظى فى سلسلة روايات اسمها (ما وراء الطبيعة). وهذا يعنى أننى لحقت بمشروع الروايات متأخرًا عشرة أعوام. حكيت هذه القصة مرارًا، وحكيت كيف أننى فى البداية قابلت

أستاذ أحمد المقدم الذى تحمس لفكرتى، وما زلت حتى اليوم أعتبره من اكتشفنى، ثم قابلت الأستاذ حمدى مصطفى بتوصية منه .. الخ .. دخلت المطبخ، وهناك قابلت الفنان - صاحب قلب الطفل - خالد الصفتى لأول مرة، وعرفت الأستاذ رءوف وصفى كاتب الخيال العلمى المهم . ولا شك أننى قضيت أجمل أيام حياتى فى مرسم الفنان الرائع إسماعيل دياب يرحمه الله .

بعد هذا جاء الجيل الثانى الذى خرج من سلة الروايات، مثل تامر إبراهيم ومحمد سليمان ، وجاء جيل محمد رضا وسالى وحسن الحلبي. ولم أدرك ضخامة المشروع الذى قام به حمدى مصطفى إلا عندما أدركت أن هناك جيلاً كاملاً قد تربى على هذه الكتيبات، وأن أبناءنا صاروا فى كل مكان .. منهم الطبيب والصيدلى والقاضى والعالم الكيميائى والرقيب الإدارى والمخرج والضابط .. لكن حمدى مصطفى كان قد رحل بعد معاناة طويلة مع المرض. ولقد رأيته فى داره التى لم يغادرها طيلة ثلاث سنوات، فتذكرت قصيدة أحمد شوقى عن مصطفى كامل:

ولقد نظرتك والردى بك محدقٌ ... والداءُ ملءُ معالم الجثمان

تُملى وتَكتُبُ والمشاغِل جَمّة ... ويداك فى القرطاسِ ترتجفان

فهششتَ لى ، حتى كأنك عائدى ... وأنا الذى هَدّ السّقامُ كِيانى

بالضبط .. كان يبتسم لى ، وهو يدير المؤسسة كلها من مقعده الذى لا يغادره، وكانت هناك خادمة ريفية طفلة تقف جواره مهمتها أن تضع السماعة على أذنه، لأن يديه لم تعودا قادرتين على حمل الهاتف ، كما أنها كانت تشعل لفافة التبغ وتدسها بين شفتيه ليأخذ نفسًا ثم تنفضها .. وهو مشهد طريف قد يجعلك تبتسم لكنه كذلك قاس أليم، فهو لم يكن قادرًا على رفع اللفافة لفمه ولا على الإقلاع عن التدخين .. هذا رجل لم يكف عن العمل لحظة واحدة، وكان يقضى يومه فى قراءة الأعمال الجديدة ، وشروط مناقصة آلة الطباعة التى ينوى شراءها، ومشاكل الضرائب، وتجربة نوع جديد من الأحبار، وانتقاد نوعية ورق لا تطابق ما يريد، ومراجعة أرقام المبيعات والفواتير، ولوم المصحح على خطأ فى إعراب كلمة لم يلحظه، وفض مشاجرة تمت بين عاملين فى المطبعة أو قسم التغليف، وتصميم إعلان جديد يظهر فى الصحف ، ومراجعة بروفات كتاب سلاح التلميذ ، والتدخين بلا توقف و..و.. و.... وبالطبع كان يتناول غداءه فى نفس المكتب .

ليرحمه الله .. لقد أحببت هذا الرجل بصدق.

لهذا عندما طلبوا منى فى المؤسسة أن أقدم عددًا خاصًا بمناسبة ثلاثين عامًا على صدور الروايات، تحمست بشدة .. يجب أن يستحق هذا الكتاب أن يُهدى لذكرى الرجل العظيم الذى كان بيننا. يمكننى تخيله وهو يستعرض الفكرة فى ذهنه .. كتاب خاص بمناسبة مرور ٣٠ عامًا على صدور الروايات .. يشعل لفافة تبغ .. يخرج رأسه من النافذة الجانبية ليطلب شيئًا من الأستاذ خالد السكرتير .. يبتسم وهو شارد الذهن .. يناولنى قطعة من الكاراميل. لا يبدو عليه أنه سمع اقتراحى بتاتًا ثم اكتشف أنه ما زال يقلب الفكرة فى ذهنه .. لقد راقت له ...

تحمست للفكرة لكنى لم أعرف ما يجب أن أقدمه بالضبط.

منذ أعوام خطرت للأستاذ حمدى فكرة أن يكتب كل كتاب المؤسسة عددًا صيفيًا خاصًا سميكًا، وقد نفذنا الفكرة .. كان دورى فى هذا الكتاب قصة قصيرة اسمها (ثلاثة) . وهى تدور حول جريمة ذات طابع طبى يقوم بالتحقيق فيها رفعت إسماعيل وعلاء عبد العظيم ، وكالعادة يجد الأول تفسيرًا خوارقيًا، بينما

يجد الثانى تفسيرًا طبيًا ، بينما تراقب عبير عبد الرحمن هذا كله. كانت قصة جيدة على ما أعتقد، لكن لا أعرف أين ذهب هذا الكتاب، كما أننى فقدت أصول القصة .. يبدو أننى لم أكن أستعمل الكمبيوتر فى الكتابة وقتها. وعلى قدر علمى لا يذكر أحد هذه القصة على الإطلاق.

خطر لى اليوم أن أقابل كل شخصية من شخصياتى: رفعت إسماعيل - قبل وفاته طبعًا - وعلاء عبد العظيم وعبير عبد الرحمن .. وأسأل كل واحد منهم عما يعنيه رقم ثلاثين له . بالمناسبة ما سر ولعى الغامض بحرف (العين) فى أسماء أبطالى ؟... لم ألحظ هذا إلا الآن .. لابد أنه نوع من الوسواس القهرى.

كانت المغامرة رقم ثلاثين فى حياة رفعت هى (بعد منتصف الليل) .. البرنامج الإذاعى الذى كان يقدمه بعد منتصف الليل ويتلقى فيه مكالمات المستمعين الذين يرون أشياء مخيفة.

المغامرة رقم ثلاثين فى حياة عبير عبد الرحمن هى (عبقرى) وهى محاولة مضنية لاستكشاف عالم دستويفسكى .. دستويفسكى

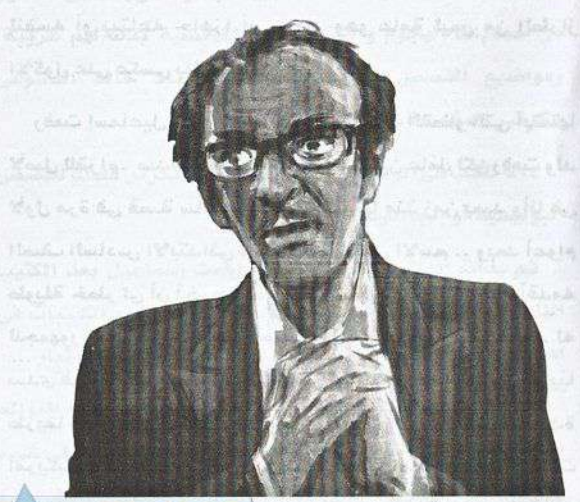
أديب رهيب مخيف، لذا لا تستطيع إلا خدش قشرة سطحية من عالمه .

المغامرة رقم ثلاثين فى حياة علاء عبد العظيم هى (قصاصات)، وهى تحكى عن تجربته مع قراءة الوجدان الجمعى لطبيب إسرائيلى .. والكتاب أقرب لسجل للمذابح الإسرائيلية ـ بعضها طبعًا ـ حتى تظل جذوة الكراهية المقدسة مشتعلة . عندما ينال الفلسطينيون دولتهم وحقوقهم سأمزق ذلك الكتيب فى رضا وأنسى الماضى.

ترى ماذا يمثله رقم ثلاثين لكل منهم ؟

سوف نعرف حالاً .. فقط اقلب الصفحة ـ أو انظر لليسار ـ من فضلك ...





- ١ -

يجلس فى شقته التى لم يتركها منذ أربعين عامًا تقريبًا. ليست فى حال سيئة جدًا، وليست شقة عُزاب كما يخيل لك، فتلك المرأة (أم شخص ما) تعنى بها من وقت لآخر، كما أنها تغسل الثياب .. لكنها لا تتعامل مع المطبخ أبدًا. يفضل رفعت أن يطهو الطعام لنفسه أو يبتاعه جاهزًا أو يجوع. وهو عامة ليس من الطراز الأكول على عكسى بالضبط.

رفعت إسماعيل .. أول اسم كتبته وتذكرة القطار التى ابتعتها لأصل للقراء. صداقة طالت أكثر من عشرين عامًا، لكن رفعت ولد لأول مرة فى قصة ساذجة بسيطة كتبتها منذ زمن بعيد وأنا فى الصف السادس الابتدائى. كان يحمل نفس الاسم .. وبعد أعوام طويلة خطر لى أن أخرج هذا البطل العجيب من الثلاجة وأقدمه للجمهور. إنه غريب واهن عصبى ملىء بالعيوب، لكنك تجد له صدى فى نفسك. كنت أعرف أن نقيض البطل هذا سيكون غريبًا طريفًا مع جمهور اعتاد أدهم صبرى الوسيم القوى. هناك سيدة أمريكية فاتنة تزوجت من رجل بدين قصير أصلع مضحك .. قالت لصديقتها: «بدا لى غريبًا جدًا وسط كل الموديلات الذين يتقدمون لى، وبدا كذلك مثيرًا للشفقة .. لذا تزوجته على الفور!»

حتى الفنان إسماعيل دياب يرحمه الله لم يفهم هذه النقطة أولًا، فبدأ برسم رفعت وسيمًا قويًا حتى شرحت له وجهة نظرى .. بل إننى رسمت له تخيلى لهذه الشخصية. كان مفهوم بطل قصص مصاب بضيق الشرايين التاجية والربو عجيبًا لدى كثيرين.

أحدثت الشخصية صدمة فى البداية، وجاءتنى الكثير من خطابات الهجوم والشتائم لأن الشخصية بدت لهم غريبة، ومواضيع القصص أغرب، ونصحنى الأستاذ خالد الدسوقى سكرتير المؤسسة:

- «لا تكتب فى الرعب يا دكتور .. حاول أن تكرس قلمك للقصص البوليسية أو الجاسوسية»

ثم بدأت أدرك أن الناس أحبوا رفعت إسماعيل بعد الكتيب الثامن أو التاسع. ووجدت أن الأستاذ خالد يتابع الكتيبات فى اهتمام ويقترح حلولًا أو تعديلات. لقد اجتاز رفعت الاختبار...

قبل أن يثبت رفعت قدميه على الأرض، خطرت لى فكرة العوالم الموازية .. أرض أخرى تشبه أرضنا جدًا، وتختلف عنها فى شىء بسيط لكنه جوهرى. اقترحت على الأستاذ حمدى مصطفى بدء سلسلة أخرى، لكنه قال فى دهشة:

- « ألا تنتظر حتى تثبت السلسلة الأولى نجاحًا ؟»

ثم وجد الحل:

- « دع رفعت يتلق خطابًا غريبًا من شخص يدعى سالم .. وهو ينشره كما هو بلا تدخل »

هكذا أدمجت الكتيب الذى انتهيت منه فى سلسلة ما وراء الطبيعة ، ولفترة طويلة جدًا داعبنى حلم الانفصال بسالم وسلمى، ثم عدلت عن ذلك ...

كنت فى البداية أرمح فى مملكة ليس فيها سواى ... أحفر فى منجم لا يوجد به عمال غيرى . كان كل شىء غريبًا طريفًا .. تكتب عن بيت مسكون أو نبات شيطانى أو سهرة مخيفة مع أصدقاء أحدهم شبح، فيتحمس القراء .. كل هذه كانت أفكارًا طازجة وقتها، وكان القارئ مستعدًا للانبهار .. مع الوقت قرأ القارئ وشاهد كل شىء وصار أقل استعدادًا للاهتمام .. صرت أفتش فى ركن مظلم من الكهف عن شىء لم يجده الآخرون و ـ الأهم ـ لم أجده أنا .. كانت المهمة تزداد صعوبة لكنى ظللت قادرًا على إيجاد تيمة جديدة فى كل مرة .

عرفت مع الوقت أن الاختيارات تضيق وأن رفعت لن يظل حيًا

للأبد. كنت أتلقى نفس الخطابات التى أتلقاها منذ العدد الأول، والتى يقول بعضها إن الأعداد الأخيرة صارت (زى الزفت) ولم يعد مستواها كما كان، وقد اعتدت هذه الخطابات على كل حال من مدرسة (آخر عدد هو الأسوأ) أو مدرسة (عمر اللى فات ما حيرجع تانى). بعد العدد السابع من (ما وراء الطبيعة) ، أرسل لى أربعة شباب يقولون : إنه لا جدوى مما أكتبه، وإن كتاباتى (الأخيرة) سيئة جدًا ولم تعد كما كانت، وأنهوا الخطاب قائلين: «من تحسب نفسك لتصدر قصصًا مثل سيدك نبيل فاروق يا صعلوك ؟!». أقسم أن هذا حدث ! . وحدث بعد الكتيب السابع بينما السلسلة تتجه نحو ذروتها. تصور مدى الحقد والحماسة اللذين يجعلان أربعة شبان يجتمعون ليكتبوا هذا بخط واضح جميل ويوقعوا عليه معًا، ويلصقوا طابعًا ويكتبوا العنوان ويرسلوا الخطاب !

اعتدت هذا من وقت لآخر، وتعلمت أن على المرء أن يتحمل وقاحة البعض وإلا لما تحرك خطوة واحدة. لكنى مؤخرًا بدأت أشعر بالغبن وضاق صدرى أكثر تجاه هذا النوع من الخطابات، خاصة مع الدقة والإتقان اللذين كتبت بهما آخر أعداد برغم ندرة الأفكار. وهكذا قررت أن يموت رفعت عند الكتيب الثمانين .. لقد انتهى الغرض منه وأنهى دورة حياته مثل ذبابة مايو .. بعد أن

يموت سيظل الناس يذكرونه طويلًا ويفتقدونه .. ربما هو أول بطل قصص يموت فعلاً. لا أذكر مثالاً آخر سوى هركيول بوارو . تلقيت لوم آلاف القراء على موته ، وبعضهم شتمنى بصراحة، لكنى كنت أقول: «لو تركته لهاجمتموه بشراسة .. إذن الموضوع هو: لماذا لم تترك رفعت حيًا لتخبرك بعد كل كتيب كم صار مملًا ؟! ».

لقد كان رفعت هدفًا قادمًا للتصويب، وأنا قد انتزعته من على الجدار ووضعته فى الدرج .. لهذا بدا تصرفى قاسيًا غليظًا بالنسبة لمن أعدوا سهامهم ..

ما علينا ....

لم يكن رفعت قد مات عندما أجريت معه هذا اللقاء .. لابد أنك استنتجت هذا.

أنا جالس فى الصالة المعتادة التى توجد فيها تماثيل من ثقافة الزولو ورمحان على الجدار، وهناك بعض دمى الفودوو فى (نيش) جانبى . هناك بعض أقنعة الموت المكسيكية الشهيرة .. هناك كتب متناثرة هنا وهناك . هناك آيات قرآنية معلقة كثيرة شأن من يتوقع خطرًا خارقًا للماديات . نصف شياطين العالم تلاحق هذا الرجل ، ونصفها الآخر يحوم حولنا فعلًا ولا نراه .

هناك لوحة زيتية لفتاة شقراء ناحلة نبيلة جدًا ذات أنف أقنى .. واضح أنها ماجى ماكيلوب طبعًا. تبدو أقرب لأميرة بريطانية من عالم الخيال.

يجلس أمامى فى منامة زرقاء فوقها روب يجعله أضخم حجمًا، لكنك ترى رقبته النحيلة فتشعر أنه سلحفاة عجوز .. يبدو أنه قد سئم وجودى .. رفعت لا يتحمل أى زيارة من كائن بشرى أكثر من عشر دقائق . أما عن مكالمات الهاتف فلا تزيد على دقيقتين فى الغالب . لا أذكر من القائل إنه لا يواظب على التنفس إلا لأنه يتم برغمه .. أعتقد أنه هو نفسه من قال ذلك .

قلت له فى حذر:

ـ « السؤال الذى قلته لك فى الهاتف هو نفس السؤال الذى أوجهه الآن .. ما معنى رقم ثلاثين بالنسبة لك ؟»

قال فى ضيق ونفاد صبر:

ـ « لو كنت تعتقد أننى رائق المزاج لألعاب حفلات الكلية هذه فأنا .... »

قلت بسرعة :

ـ « وقد قلت لك إننى مكلف بهذه المهمة .. قالوا لى : إنك ستتعاون »

راح يفكر بعض الحين ..

ثلاثون .. ثلاثون ..... فى حياة كل منا رقم ثلاثين .. بالتأكيد. هناك عدد خاص من سلسلة هذا الشيخ اسمه (٣٦) لكن رقم ٣٦ ليس موضوعنا اليوم ..

قال بعد قليل ليتخلص منى:

- « أعتقد أن لدى قصة لا بأس بها.. لقد لعب الرقم (ثلاثون) دورًا فى حياتى بالتأكيد، وأعتقد أنه لعب دورًا مهمًا فى حياة كل إنسان »

★ ★ ★

قال رفعت:

الرقم ثلاثون يذكرنى جدًا بالـ(ستون هنج) Stonehenge ذلك الأثر العجيب فى جنوب إنجلترا. هناك دائرة يطلقون عليها اسم دائرة السارسين Sarsen وهو نوع غريب من الأحجار.. هذه الأحجار تصنع الدائرة المكونة من ثلاثين عمودًا .. هناك كذلك صفوف يطلقون عليها الـ Y والـ Z . وهذه الصفوف صنعت من حفر عددها ثلاثون. بالمناسبة (سارسين) هى اشتقاق من كلمة (ساراسين) وهو الاسم الذى كان البريطانيون يطلقون على

المسلمين فى الماضى .... ما دخل المسلمين بهذه الحجارة ؟ لا أحد يعرف ..

كل ما يتعلق بالستون هنج غامض غريب .. هى فصل محبب دائم فى أى كتاب عن الأسرار الغامضة .. الأهرام .. أهرام الأزتك .. الستون هنج .. كهوف تسيلى .. رجل الثلوج المخيف .. الخ ..

لهذا كان ينبغى أن أزور هذا الأثر العجيب ..

وقد فعلت .. زرته خمس مرات وفى كل مرة أنبهر، لكنى على كل حال أنا جئت من أرض الأسرار التى تثير الذهول .. يكفى أن ترى وجه سائح يرى معبد إدفو أو الدير البحرى .. أى أننى كنت أنبهر فى إنجلترا لكن ليس بشدة ..

كان هذا هو العام ١٩٨٥ ..

أراد حظى الأسود أن أكون هناك فى أو ل يونيو .

كنت مع ماجى طبعًا.. من الصعب أن أتواجد فى هذا المكان من العالم من دون هذه الحسناء البريطانية الراقية. وكنا متوجهين إلى ويلتشاير .. جنوب سالزبورى .. هذا هو المكان الذى يوجد فيه الستون هنج . إنه مزار سياحى بالغ الأهمية فعلا..

كنا فى القطار، وكنت أراقب الحقول الراكضة جوار النافذة ،

عندما وضع الرجل الجالس أمامى جريدته، وراح يكلم ماجى بلكنة مستحيل أن أتابعها برغم إجادتى شبه التامة للإنجليزية المكتوبة، وبدا عليها بعض القلق .

لما انتهى من الكلام، نظرتْ لى وقالت :

- « هناك متاعب .. »

- « كالعادة . »

لكنها كانت جادة .. أضافت :

- « هناك مسيرة لدعاة السلام تتجه نحو ويلتشاير .. هؤلاء يطلقون على أنفسهم اسم (مسافرو العصر الجديد) .. وهم يريدون أن ينظموا مهرجانهم فى ستون هنج »

هذا يبدو مألوفًا على كل حال .. مثل الهيبيز الذين نظموا مهرجان وودستوك منذ نحو خمسة عشر عامًا ... لكنى كنت أحسب الهيبيز انقرضوا ..

قالت ماجى فى قلق :

- « الحكومة البريطانية مصرة على ألا يتم هذا المهرجان »

هكذا القصـة الدائمـة . نفس الشـىء حـدث تقريبًا فـى

وودستوك .. الصدام بين هيبة الدولة وعصا النظام من جهة ، والتمرد والفوضوية من جهة أخرى .. المشكلة هى أننى لا أفهم لماذا يثور هؤلاء الفتية بينما هم ينعمون بحكومات قوية قادرة ... أراها الفوضوية فحسب ..

قلت لماجى :

- « لا علاقة لنا بهذا .. »

- « لا أعتقد أننا سنصل للستون هنج أصلاً . سنرجع على الأرجح »

لم أفهم مدى دقة كلامها إلا عندما وصلنا إلى ويلتشاير ..

كانت المحطة محاصرة بسيارات مبهرجة ذات ألوان فاقعة .. ألوان الهيبيز التى تذكرك بقمصان مشجرة . الحافلات مزخرفة وهنـاك عشرات الأعلام ورمز السلام العالمى .. كل فتاة تقريبًا لا تلبس شيئًا، وكل شاب تقريبًا يمسك جيتارًا ويدخن الحشيش .. هناك الكثير من المقطورات التى يبيتون فيها .. يبدو أن معظمهم بلا بيت .

وعندما غادرنا المحطة وسط الزحام، هرعت فتاة تلقى بطوق أزهار حول عنقى ، بينما فتاة أخرى طوقت عنق ماجى وقبلتها ثم أعطتها زهرة وهتفت :

ـ « السلام .. تذكروا !! »

مشينا وسط الزحام والصخب نحاول أن نشق طريقًا ...

وفجأة سمعنا الصراخ وبدأ الزحام من حولنا ينشق إلى شطرين ..

رأينا خيول الشرطة قادمة .. على ظهر كل حصان رجل شرطة بريطانى حازم يضع الخوذة ويلوح بهراوة .. واضح أن الحكومة البريطانية مصممة على إثبات أنها تسيطر على كل شىء . ومن بعيد ظهرت تلك العربة العملاقة التى ترش الماء على المتظاهرين ..

ورأيت صفًا من رجال الشرطة يحملون بنادق الغاز غليظة الفوهات .. عرفت فيما بعد أن هناك نحو ١٢٠٠ رجل شرطة فى الميدان ...

قلت لماجى :

ـ « أعتقد أن علينا أن نبتعد .. سوف تشتعل الأمور حالاً .. »

نداء للمتجمهرين .. لن يسمح لأحد بالوصول لستون هنج .. ننصحكم بالتفرق !

نداء للمتجمهرين .. لن يسمح لأحد بالوصول لستون هنج .. ننصحكم بالتفرق !

دوى الصوت عبر مكبرات الصوت .. لكن بدا واضحًا أن الشباب لن يتفرقوا ..

ثم سقطت أول قنبلة غاز .. لحسن الحظ كانت بعيدة عنا وإلا لاختنقت فورًا .. فقط رأيت الدخان .

هذه هى المرة الثانية التى أجد نفسى فيها محشورًا فى مظاهرة لا دخل لى فيها .. مررت بذات التجربة من قبل فى المكسيك مع لعنة ملك الذباب إياها ..

الحقيقة أن الحظ العاثر وضعنا فى وسط معركة (بين فيلد Beanfield) أو (حقل الفول) ، وهى من أعنف المعارك التى اصطدم فيها البوليس البريطانى بالمتظاهرين ..

هنا دوى انفجار ..

هذه قنابل مولوتوف .. هؤلاء المتظاهرون لديهم قنابل مولوتوف ..

- ٢ -

بدا واضحًا أن رجال الشرطة البريطانيين فقدوا أعصابهم ..

كانوا يضربون بعنف وهياج وسنابك خيولهم تدوس من يتواجد فى ذلك المكان .. ومن عدة أماكن تطايرت زجاجات المولوتوف المشتعلة لتسقط وتتناثر النيران السائلة ..

ومن مكان آخر تناثر رذاذ الماء القوى من عدة خراطيم إطفاء تحاول تفرقة الشباب .. ودوى صوت زجاج يتحطم .. رجال الشرطة يحطمون زجاج سيارات الشباب ..

كل هذا العنف من أجل السلام !!

جذبت يد ماجى ورحنا نحاول الابتعاد عن المكان، لكن من الواضح أننا محاصرون بالكامل .. الحركة وسط هذا الزحام صعبة جدًا .. لا سبيل للفرار ..

قطعة حجر تمر جوار رأسى ...

ماجى تقف أمامى لتمنع رشاش الماء من إصابتى ، وهذا يثير غيظى ... من قال إن من واجبها أن تحمينى ؟.. هذه مهمتى أنا ..

حصان من الشرطة يركض نحونا وعلى صهوته رجل شرطة محنق .. يطوح بهراوته ذات اليمين واليسار . شددت ماجى إلى

الأرض قبل أن يظفر برأسها هذا الحيوان ..

الحقيقة أن الأمور تسوء بلا توقف ..

من موضع ما سمعت من يقول لى:

- « من هنا ! »

لم أر سوى اليد التى تشير فجذبت ماجى وركضنا ...

كان هذا الذى نادانا قد توارى فى حارة ضيقة بين بنايتين .. شارع منحدر بشكل حاد كما عرفت فيما بعد كل شوارع ويلتشاير. هكذا حتى لو توقفت تكتشف أنك تركض ركضًا ..

كانت هناك حانة ..

حانة بريطانية جدًا من التى تبرز منها لافتة صغيرة عليها كوب جعة، وقد كتب عليها بحروف قوطية ... حروف يصعب أن تقرأها ...

عرفنا أن منقذنا قد دخل هناك فهرعنا خلفه ..

فى الداخل كانت الإضاءة خافتة، لكننا قدرنا أن معظم الموجودين كانوا فى المسيرة وقد تواروا هنا مثلنا. هناك رجال وفتيات .. بعضهم يشرب الجعة وبعضهم ينظر عبر النافذة الضيقة

فى توتر ..

لا يوجد شىء غريب فى مظهرهم ، لكن منقذنا كما فهمت من نظراته هو شاب ملتح له شعر بنى ويضع عوينات صغيرة داكنة ، ويرفع شعر رأسه على طريقة الثمانينيات التى تجعله أشبه بالأسد ..

كان يلهث .. وكنا مثله ..

قال لنا وهو يشير بيده للساقى كى يجلب لنا ثلاثة أكواب (شوب) من الجعة :

- « كنتما موشكين على الهلاك .. لقد جن رجال الشرطة »

قلت له أن يجلب كوبين فقط له وماجى ، ثم أضفت :

- « الاستفزاز متبادل .. لقد رأيت زجاجات مولوتوف »

مد يده ليصافحنى وقال :

- « أدعى آرثر جليرمان ... من الدرويديين الجدد »

صافحته وقلت :

- « رفعت إسماعيل .. مصرى .. هذه مس ماكيلوب .. »

كنت أعرف الدرويديين الجدد Druidry طبعًا ... هؤلاء قوم

يعشقون الـ (ستون هنج) ويحجون لها عدة مرات فى العام .. هذه حركة نشأت فى القرن الثامن عشر، ومهمتها إحياء الوثنية وتعدد الآلهة كما كانا فى إنجلترا قديمًا ، وكما كانت تمارسها قبائل السلت فى عصر الحديد .. لو كنت قد قرأت مغامرتى مع (الهالوين) فأنت تعرف كل هذا الكلام و(ساوين) إله الدرويديين .. الخ .. هذا نوع عجيب من الإصلاح الدينى ، أن تعيد الوثنية للعالم بعدما استقرت المسيحية ! ...

عبادة الطبيعة عنصر مهم جدًا من الدرويدية الجديدة. لو كنت قد رأيت فيلم (الرجل الخيرزان) فى نسخته القديمة الساحرة (١٩٧٣) ، فلسوف تفهم ما أتحدث عنه .. الكاهنات اللاتى يرقصن حول الستون هنج فى ضوء الفجر، وعبادة البحر .. والتضحيات البشرية من أجل خصوبة الأرض ..

لحسن الحظ لم يصل الأمر لهذا بعد ..

فقط هناك عدة أعياد فى السنة .. ثمانية على وجه التحديد، معظمها له مناسبات فلكية محددة ترتبط بالشمس والاعتدال القمرى (الذى لا أعرف ما هو لكنه يوجد فى هذه الأمور دائمًا) .. يسمونها (عجلة الحياة) ... وهناك كهنة ورهبان .. ورقصات حول الستون هنج بثياب بيض . مع تيجان للشعر من الأزهار .. الحقيقة

أنها صورة مثيرة للخيال، لكنها كذلك تدل على الجنون ..

تواجد هؤلاء هنا مفهوم إذن ..

هذا عيد من أعياد عجلة الحياة، وقد أفسده رجال الشرطة ..

سألته :

ـ هل تنوون الذهاب إلى (ستون هنج) » ؟

رشف رشفة كبيرة من الجعة فصار له شارب أبيض كبابا نويل، وقال:

ـ هى مخاطرة كبرى .. (الستون هنج) يبعد سبعة أميال ، وقد أغلق رجال الشرطة الطرق .. لكننا سنحاول أن نتجه إلى هناك متفرقين»

ظهر رجل آخر فى منتصف العمر، يلبس قميصًا (كاروهات) مفتوح الصدر وله شارب كث وصوت غليظ لا تصدق أنه حقيقى .. قال لنا:

ـ « ماذا تفعلان هنا ؟ »

قالت ماجى فى هدوء:

ـ ما يفعله الجميع .. أردنا زيارة الستون هنج .. هذا مكان غامض

مثير يجذب السياح كلهم »

شمر القميص عن ساعده ليريها ندبة طويلة هناك .. أنا طبيب لذا أشعر بانجذاب خاص نحو الجروح .. هذا جرح ملتئم منذ زمن، لكنه التأم تلقائيًا وليس نتيجة خياطة .. ما يسميه الجراحون بـ (النية الثانوية secondary intention) ..

قال الرجل:

ـ « أدعى ويليام . هذا جرح أصابنى من حادث وأنا أركب الدراجة النارية .. »

هذا ممتع حقًا .. لكن ما دخلنا بهذا كله ؟ . استطرد:

ـ « زرت الستون هنج .. فى الصباح وجدت أن الجرح التأم تمامًا. تكلم كثيرون عن قدرة الستون هنج على شفاء الجروح وأنا دليل حى على ذلك .. تقول الأسطورة إن بعض العمالقة جاءوا بهذه (الستون هنج) وزرعوها هنا لتكون قادرة على شفائهم .. هناك أسطورة تقول : إن الملك آرثر جاء بها عن طريق ساحره القدير مرلين، وكان فرسان المائدة المستديرة يجتمعون هناك»

كنت قد سمعت هذه الأسطورة من قبل .. كاميلوت قريبة من هذا الموضع على كل حال ..

ونظر باسمًا إلى صاحبه الذى يدعى آرثر .. قال الشاب آرثر:

ـ «علماء آثار آخرون قالوا : إنها مقابر عتيقة تعود لعام ٣٠٠٠ قبل الميلاد .. عالم آثار اسمه بيرسون استخرج آلاف العظام البشرية من هذا المكان .. عالم يدعى (أوبرى) وجد الكثير من حفر الدفن لذا أطلقوا عليها اسم (حفر أوبرى) »

كانت مشكلة هذه الآثار هى أن من يبحثون فيها دومًا إما فريق من علماء الآثار الذين يجهلون كل شىء عن علم الفلك، وإما فريق من علماء الفلك الذين يجهلون كل شىء عن علم الآثار .. علماء الفلك – وعلى رأسهم (جيرالد هوكنج) – يؤمنون أن هذه الأحجار أجهزة رصد غاية فى التعقيد .. وقد أطلقوا عليها اسم (الكمبيوتر الحجرى) .. هذا الكمبيوتر له وظائف دينية وسياسية مهمة لدى الأقدمين .. لكن هذه النظرية يدحضها علماء الآثار .. لو كان ستون هنج مرصدًا لكان من الواجب ألا تحيط به أية أشجار، بينما برهنت الحفريات على أن المنطقة كانت غابة كثيفة فى الماضى البعيد.

الحقيقة أن الأساطير التى تدور حول ستون هنج، تذكرك جدًا بعالم الأهرام الغامض، وحتى قدرة الشفاء موجودة فى الهرم كما قيل ..

سوف تظل هذه الألغاز ملفات مفتوحة يتم التحقيق فيها ولن نصل لإجابة أبدًا كما هو واضح ..

ساد الصمت .. ومن بعيد نسمع صوت الطلقات والصراخ والزحام. لابد أن وطيس المعركة يشتعل . سوف تدخل معركة (بين فيلد) التاريخ باعتبارها من أعنف أعمال البوليس البريطانى، ولن يمر اليوم قبل اعتقال نحو ستمائة من المتظاهرين .. أكبر عدد يتم اعتقاله منذ الحرب العالمية الثانية ..

قالت لى ماجى وليتها لم تفعل :

ـ « نفس ما يقال عن الأهرام عندكم ..»

فى الضوء الخافت تبادل الرجلان النظرات .. أدركت أن عددًا من الجالسين فى الحانة ينظرون لنا، ثم بدأ بعضهم يقفون من حولنا ..

سألنى ويليام فى فضول:

ـ « هل أنت مصرى ؟ »

ـ « هذا واضح »

من جديد عاد يسألنى:

- « هل أنت .. مسلم ؟ »

- « نعم »

تبادل نظرات جانبية مع صاحبه .. ماذا هنالك ؟.. البريطانيون ليسوا متعصبين دينيًا، وحتى لو كانوا فهذا الرجل وثنى أصلًا ولا يهتم بالأديان .. ولو اهتم بها فلا فارق عنده بين المسلم والمسيحى واليهودى والبوذى ..

الآن بدأت أدرك أن جو الحانة يتكهرب .. ماذا قد حدث بالضبط ؟

حتى الساقى كف عن تقديم الشراب ووقف يراقب الموقف .

قالت لى ماجى همسًا :

- ماذا هنالك ؟ ما الخطأ فى أن يكون المرء مسلمًا؟ »

- « ظننت أن لديك الإجابة .. يبدو أن الدرويديين الجدد يكرهون المسلمين ! »

بعد دقائق قال لى أحد الواقفين، وهو رجل بدين محتقن الوجه متلاحق الأنفاس ممن نطلق عليهم فى الطب (النمط البكويكى) ، نسبة لمستر بكويك فى قصة تشارلز ديكنز :

- « اسمى مورجان ... هل ترغب فى زيارة ستون هنج ؟ »

قلت فى لا مبالاة :

- « أعتقد أننا سنعود بالقطار بمجرد أن تهدأ الشوارع .. لقد رأيتها عدة مرات من قبل »

قال فى إصرار :

- « سنذهب هناك الليلة »

قالت ماجى فى ضيق :

- « أوه .. آسفة .. سيكون الأمر خطيرًا ولا يستحق العناء .. رجال الشرطة فى حالة عصبية غير طبيعية »

- « نحن قادرون على أخذكما هناك ! »

نهضت فى عصبية وقد أدركت أن هناك نوعًا من الصدام فى الطريق. كل شىء صار غريبًا منذ ذكرت موطنى وديانتى .. ما هذا الإصرار الغريب على زيارة الأثر ؟. قلت فى عصبية :

- « ونحن واضحان فى أننا لم نعد راغبين فى ذلك »

هنا رأيتنى أحدق فى مسدس صغير كريه الشكل يحمله ذلك الرجل .. غريب هذا الحماس الذى لم أعهده من قبل. كلنا نحب

أن يزور السائحون معالم بلادنا لكن هذا حماس سياحى غير مسبوق ..

الأدهى أننى نظرت حولى فوجدت أن أكثر من كانوا فى الحانة يحيطون بنا وفى عيونهم عداء واضح، وعلى الأقل كان خمسة منهم يلوحون بخناجر أو مدى ... كان الضوء خافتًا ما عدا انعكاسًا على النصال أو الأسنان أو العيون ...

قال أحدهم:

- « من الخير أن تطيعنا يا رجل .. نحن لا نريد أن تتأذى حياة الآنسة بسبب عنادك !»

- ٣ -

الساعات التى تمضيها أسيرًا فى حانة بريطانية منخفضة الإضاءة، بينما الشرطة تواجه المتظاهرين فى الخارج ... هذه خبرة ممتعة فعلاً.

أنت تجلس فى ركن مظلم من الحانة يحيط بك عدد من الفتوات، وجوارك تجلس حبيبتك هادئة الجنان كعادتها. وتظهر امرأة تحمل صحفة عليها بعض الطعام الساخن .. تضعه أمامكما لكنك لا تطيق أن تحشر الطعام فى فمك ..

جلس الرجل البدين البكويكى الذى عرفت أن اسمه (مورجان) أمامى وأشعل لفافة تبغ، وقال:

- « سوف تحتاج إلى أن تظفر ببعض الطعام .. إن الليلة طويلة ...

ليلة طويلة ؟ ... ما زلت لا أفهم ما يراد بنا ... قلت فى اقتضاب:

- « الجثث لا تجوع »

اهتز كرشه بضحكة مكتومة وقال:

- « من تحدث عن الجثث هنا ؟»

- « مسدس ومدى .. أعتقد أننا نتحدث عن مصيبة .. ستون هنج

ودرويديين جدد . لا يجب أن تكون عبقريًا كى تعرف ما سيحدث .. إن القرابين البشرية ستعود بقوة كما هو واضح»

ـ « قرابين بشرية ؟ .. أنت تشاهد أفلامًا أكثر من اللازم »

قالت ماجى مغتاظة وقد ظلت تضغط على أعصابها طويلًا :

ـ «لا تقل لى إنكم تفعلون هذا كله من منطلق الحماس الوطنى .. لابد أن يرى السائح المصرى العزيز آثارنا السلتية العظيمة ..!»

قال الرجل وهو ينفث سحابة دخان كبيرة :

ـ «لا هذا ولا ذاك .. الأمر يقع بين الاثنين .. ليس تضحية همجية وليس حماسًا سياحيًا .. فى الواقع سوف تفهمان كل شىء عندما نصل إلى هناك»

ونظر فى ساعته وقال:

ـ « سوف نتحرك فى الواحدة صباحًا ... أنصحكما ببعض النوم حتى ذلك الحين.. هناك غرفة جانبية بها فراش لو أردتما النوم »

قالت ماجى فى عناد :

ـ « بالطبع لن أغمض جفنى .. خصوصًا وأنا محاطة بوجوهكم الكريهة »

ـ « توقعت هذا .. »

أما أنا فكنت منهكًا بالفعل من طول هذا اليوم .. الإضاءة الخافتة والانفعال .. كل هذا جعلنى أسند رأسى إلى ساعدى وأحلم .. أحلم بأشياء كثيرة جدًا .. فى كل مرة كنت أصحو مذعورًا فأتذكر أين أنا، وأطمئن على أن ماجى سليمة ثم أواصل رحلتى فى عالم الأحلام.

الليل يقترب ..

عما قريب سوف أعرف ما يريده هؤلاء القوم ... لست مستريحًا جدًا للوقوع فى أيدى وثنيين يريدون ممارسة طقوس عتيقة ...

سمعنا صوتًا .. من الخارج جاء ذلك الصوت الرفيع :

ـ « هل حقًا لم تر متظاهرين يا صاحب الحانة ؟»

جاء صوت صاحب الحانة :

ـ « بالطبع لا يا سيدى الكونستابل»

لقد جاء رجال الشرطة هنا يفتشون عن هاربين، وهم مستمرون فى حملة الاعتقال التى بدأت صباحًا. من المنطقى طبعًا أن أستسلم لهم .. هذا هو ضمان حياتى الآن ..

صحت فجأة بأعلى صوتى :

ـ « النجدة !.. نحن هنا ! »

كانت صيحة مفاجئة وأتبعتها بالدق على المنضدة بكل قوتى، بينما أطلقت ماجى صرخة رفيعة طويلة، ووقفت على المقعد كأنها تقود مظاهرة .. كان هذا أقوى مما توقعه آسرونا ..

اقتحم الشرطى الباب عنوة .. استطعت أن أرى وجهه الطفولى وملامحه الوادعة. لكنه يمثل السلطة ويمثل التاج البريطانى بالتأكيد، وكان غير مسلح سوى بهراوة ككل البوليس هنا ... هتف وهو يرانا:

ـ « كيف بحق السماء ....؟ »

لم يكمل العبارة لأن أحد آسرينا هوى بمقعد على رأسه من الخلف فسقط على الأرض دون كلمة أخرى. أحب الذين يقولون شيئًا قبل أن يسقطوا .. لكن هذا أسلوب مرعب. وهتفت ماجى فى هلع:

ـ « أنتم قتلتموه !.. إن الاعتداء على رجل شرطة باهظ الثمن .. »

شدتها المرأة مكتنزة العضلات فأسقطتها فوق المنضدة .. ثم واصلت جذبها فسقطت على الأرض .. ماجى رقيقة جدًا ويسهل كسرها لو أردت. أدركت من سقطتها وصرخة الألم التى أطلقتها أنها هشمت عظمة فى ساقها على الأرجح ..

نهضت مغضبًا وأنا أسب بالعربية وألعن، هنا ضغطت ستة أيد على لترغمنى على الجلوس، وقال آرثر جليرمان وهو يلهث:

ـ لا داعى لمزيد من المشاكل .. أنتما سبب ما حل بهذا الشرطى .. لا أريد المزيد من المحاولات البطولية »

ثم صاح فى الرجال من حوله:

ـ « لابد من التحرك الآن .. ربما جاء رجال شرطة آخرون... »

ثم نظر إلى جسد الشرطى الواقع على الأرض وهتف:

ـ « فليأت معنا .. لقد صار شاهدًا على كل شىء، ولا نستطيع قتله »

بسرعة كان هناك من يدفعوننا نحو الباب الخلفى، وكانت هناك سيارة (فان) واقفة .. كما كانت هناك ثلاث سيارات بريطانية صغيرة الحجم .. كانت ماجى تستند إلى كتفى وتتواثب كاللقلق .. بينما حمل عدد منهم جثة الشرطى أو جسده .. لا أدرى ..

وجدت نفسى مع ماجى فى السيارة الـ(فان) جالسين على الأرض ومعنا اثنان من الرجال، وبيننا كان الشرطى فاقد الوعى .. تأكدت من أنه لم يمت لكنه بالتأكيد مصاب بارتجاج شنيع .. وأدركت أنه بحاجة ماسة للمستشفى ..

لكنى بالطبع لم أستطع الرؤية جيدًا .. فقط لمحات مختلسة

من بين الأضواء المتسللة من النافذة الخلفية من وقت لآخر ..

بعد ربع ساعة تقريبًا توقفت السيارة ..

انفتح باب السيارة الـ(فان) وظهر الرجل مورجان .. وصاح:

ـ « هيا بنا ! »

ما زلت لا أفهم .. يحملون جسد الشرطى ويحيطون بى وماجى التى تتواثب كلقلق .. هناك نحو عشرة رجال تقريبًا ..

ومن بعيد رأيت الـ(ستون هنج) بشكلها المألوف الرهيب فى الظلام الذى يبدده ضوء النجوم ... كأنها أشباح من العصر الحديدى تنتظرنا ..

قالت ماجى همسًا:

ـ « لا أعرف كيف وصلوا إلى هنا .. الشرطة لا تسمح لأحد بالدنو، والطريق مغلق على بعد ميلين .. أعتقد أنهم دفعوا رشوة للشرطة أو أن مسئولاً يتعاون معهم »

ـ « هلا خرست قليلاً ؟ لا أعتقد أنك فى حالة تسمح بالثرثرة »

ـ « أعتقد أن هذا التواء فى الكاحل لا أكثر .. سأعيش »

إننا نتقدم الآن .

هذه الصخور يمتد عمرها إلى العام ٢٠٠٠ قبل الميلاد .. من

حولها ترى ذلك الخندق الدائرى الذى يفصلها عن باقى معالم الوادى .. أشكال حجرية غريبة شيدها الإنسان فى هذه العصور الغابرة .. كأنها حرف U اللاتينى مقلوبًا .. فى البدء كان الخندق وبه ٥٦ حفرة للدفن هى حفر أوبرى .. ثم ظهرت تلك الصخور المتراصة فى دائرة مزدوجة .. ثم ظهرت تلك الصخور العرضية التى تربط التكوينات ..

مشهد رهيب فعلاً خاصة فى الليل ..

للحظة الأولى أدركت أن معنا امرأة أخرى ..

امرأة فى الخمسين من العمر مرهقة جدًا تتوكأ على مورجان، وتحاول بصعوبة أن تلحق بنا .. واضح تمامًا أنها مريضة .. إذن موكبنا فيه ثلاثة مرضى .. الشرطى وماجى وهذه السيدة ..

وقفنا وسط الأحجار المخيفة، فدعانا آرثر إلى الجلوس على الأرض ...

قال لى وهو يخط أشكالاً على الغبار:

ـ « ثلاثون ! ... دائرة أحجار السارسين مكونة من ثلاثين عمودًا .. هناك كذلك ثلاثون حفرة. السارسين نوع من الأحجار الجيرية التى تجدها فى سهل سالسبيرى .. يستخدم بكثرة كدرجات سلم لكنه رطب زلق وليس عمليًا .. »

قالت ماجى وهى تتحسس كاحلها :

ـ « جميل جدًا .. لكن هذا لا يبرر خطفنا لو أردت رأيى »

قال :

ـ « نحن لم نختطفكما .. اختطفنا رفيقك المسلم .. السبب هو أننا اتفقنا منذ زمن على أن هذه الصخور لها قدرات خاصة لو تعامل معها رجل مسلم . السارسين لفظة مشتقة من لفظة ساراسين، ومعناها القديم هو (المسلم) أو غير المسيحى عامة .. لكننا لم نجرب هذا مع اليهود على كل حال»

قلت له :

ـ « وما هو دورى ؟ هل يجب أن يلوث دمى صخرة التقدمات مثلاً ؟ »

قال فى جدية :

ـ « لابد أن شيئًا كهذا كان يدور فى الماضى ، لكننا سنجعلك تقف بين صخور السارسين الثلاثين وتردد بعض العبارات .. هذه العبارات لها خاصية تنشط قدرة الصخور على الشفاء وأشياء أخرى .. »

ـ « شفاء ؟ شفاء من ؟ »

ـ « صديقتك .. الشرطى .. جلاديس »

من هى جلاديس ؟

ثم نظرت للخلف فرأيت المرأة السقيمة التى جلست على الأرض تراقبنا جوار زوجها .. كانت تنتظر فى توتر نتيجة هذه المحادثة ..

ـ « هى زوجة مورجان صاحبنا .. سرطان نخاع متقدم .. يجب أن نجرب كل شىء »

إذن هم يؤمنون بنظرية قدرة صخور ستون هنج على الشفاء .. لكن أى هراء هذا ؟

قال وعيناه تلمعان :

ـ « للصخور خواص صوتية فريدة .. كانوا يحضرونها من بعيد بسبب قدرتها على إحداث رنين عال، وكانوا يطلقون عليها (ليثوفون) .. أى الصخور الصوتية .. وهذه الصخور قادرة على الشفاء كما نتصور»

قالت ماجى فى فهم :

ـ « إذن تم هذا الاختطاف من أجل صديقكم .. كنتم تريدون التجربة»

ـ « وفجأة أرسل لنا القدر رجلاً مسلمًا، ونحن نفكر فى مجموعة أحجار تُنسب إلى المسلمين لسبب لا نعرفه.. لابد أن هذه إشارة واضحة .. سوف يؤدى هو الطقوس »

فى غيظ قلت:

ـ « ومن قال إننى أعرف كيف أؤدى أى طقوس»

ـ « عليك أن تتعلم بسرعة حتى لا تتأذى صاحبتك ! »

★ ★ ★

صرت أبدو كالمهرجين بالعباءة البيضاء التى جعلونى ألبسها .. فعلاً أبدو مثل صور الدرويديين التى أراها فى الصحف. قدموا لى مجموعة صفحات فيها كلمات بحروف لاتينية ..لم أفهم حرفًا ثم عرفت أنها كتبت بلغة درويدية قديمة .. يمكننى أن أنطقها ولا أفهمها ..

وسط الدائرة الثلاثينية جلست ماجى على الأرض وجوارها المرأة المصابة بالسرطان .. ثم جسد الشرطى الذى يتنفس بصعوبة ... ووقفت أنا .. خارج الدائرة وقف هؤلاء الدرويديون ينتظرون .. للمرة الأولى فى حياتى ألعب دور كاهن قديم.. سيكون هذا مسليًا ...

صوبت كشافًا صغيرًا إلى الأوراق وقررت أن أنهى هذه المهزلة

بسرعة .

بدأت أقرأ بصوت عال ..

هناك بالفعل شىء غريب .. الصدى غير مألوف ويتردد بإلحاح مقلق .. تمثالا ممنون فى الأقصر .. أطلق عليهما هذا الاسم بسبب صوت الصدى الغريب عند الفجر .. منننننننننننننووون .. ممنووووون ..

ذكرى غامضة تلوح لى من بعيد .. الحروف تتراقص على ضوء الكشاف .. لا أرى ما يقع خارج دائرة الضوء المصوب على الأوراق.

بالفعل الصخور تردد كلماتى .. لا شك فى هذا ...

هناك حلم مبهم يزورنى من وقت لآخر ..

ذكرى لم أعشها قط لكنها حفرت داخلى ..

لو كانت هذه الصخور تمنح الشفاء فهل أشفى أنا نفسى من الألف مرض التى لدى ؟ أم أن الكاهن لا يستفيد من تعاويذه ؟

أقلب الصفحات وأردد الكلمات ..

الصدى غريب .. الأحجار التى جاءوا بها منذ قرون عديدة تردد كلماتى بدورها ..

ثم سمعت من بعيد صوت سيارات شرطة .. رفعت رأسى فلمحت الأفق يتوهج بالضوء. هناك سيارات دانية ..

صرخ ويليام:

ـ « استمر .!.. أنت قريب من النجاح !»

أوشكت على الانتهاء من الكلمات التى لا أعرف معناها ..

ثم شعرت بأن عينى تغمضان ... وللحظة شعرت بأننى أحلق بعيدًا .. لم يعد لى وزن ولا ثقل .. هل أموت ؟ .. هل أفقد وعيى ؟ ماذا يحدث ؟ لماذا تحترق هذه الأوراق فى يدى ؟

فتحت عينى بصعوبة، فأدركت أن ماجى مغمضة العينين وكذلك المرأة جلاديس وكذلك الشرطى .. نظرت خارج الدائرة فلم أر أحدًا من هؤلاء الذين جاءوا معى .. فقط بقى رجلان .. وزوج المرأة واحد منهما، وكانا ينظران حولهما بحيرة مثلى ...

الفجر قد بدأ ومعه صارت الرؤية ممكنة .. مغلفة بالأزرق لكنها ممكنة ..

وفى ضوء الفجر أرى رجال الشرطة قادمين وهم يصوبون كشافاتهم علينا، وأدرك أن رجل الشرطة يحاول النهوض وأن ماجى نهضت فعلًا وخطت خطوتين. لقد شفى كاحلها .. أما المرأة فارتمت فى حضن زوجها ..

كانت ماجى تقول لرجال الشرطة:

ـ « خطفونا هنا ثم فروا عندما اقتربت سياراتكم»

لكنى كنت أدرك أنهم لم يفروا لمكان من حولنا ..

لقد فروا عبر الزمن ..

★ ★ ★

قلت لماجى ونحن فى القطار عائدين:

ـ « لم يكونوا درويديين جدًا .. كانوا درويديين فقط !»

نظرت لى فى حيرة فقلت:

ـ « الستون هنج ودائرة الأحجار الثلاثينية هى بوابة تقود لبعد آخر .. وهذه البوابة لها خواص فيزيائية غامضة، قادرة على الشفاء وقادرة على نقلك لزمن آخر ... أعتقد أن آرثر وويليام وأخرين جاءوا فعلاً من عصور قديمة، ومارسوا ما كانوا يمارسونه من عقائد قديمًا ..وكانوا بحاجة للعودة لزمنهم.، لكنهم أدركوا أن شيئًا ما خطأ .. فلما قابلونى خطر له أن هذه هى الطريقة المثلى لنجاح الطقوس. لقد ساعدهم الحظ بالعثور علىَ ولربما كان معنى هذا نجاح الطقوس الأكيد .. وفى الوقت ذاته قرروا أن يعالجوا امرأة صديقهم الذى لا ينتمى لزمنهم. لقد تم الشفاء ثم

عادوا لزمنهم قبل أن يجدهم رجال الشرطة»

ابتسمت ماجى ونظرت خارج النافذة .. لا أملَ هذا البروفيل الشائق لها أبدًا .. قالت لى:

- « هل صرت تؤمن بآلهتهم الوثنية وساوين وكل هذا الهراء ؟»

قلت فى غيظ:

- « بالطبع لا .. لكنى أؤمن أن الـ(ستون هنج) ظاهرة طبيعية غامضة تفتح ثغرة لعالم آخر. لم أعرف بعد سبب ارتباط اسم هذا الحجر بالمسلمين .. لكنى أعرف أن الكلمات التى رددتها لم تكن سبب فتح البوابة .. نبرات الصوت وترددها كانت هى السبب ..»

قالت ماجى:

- « ربما نعود يومًا لنكرر التجربة »

لكن هذا لم يحدث قط ولا أظن أنه سيحدث ..

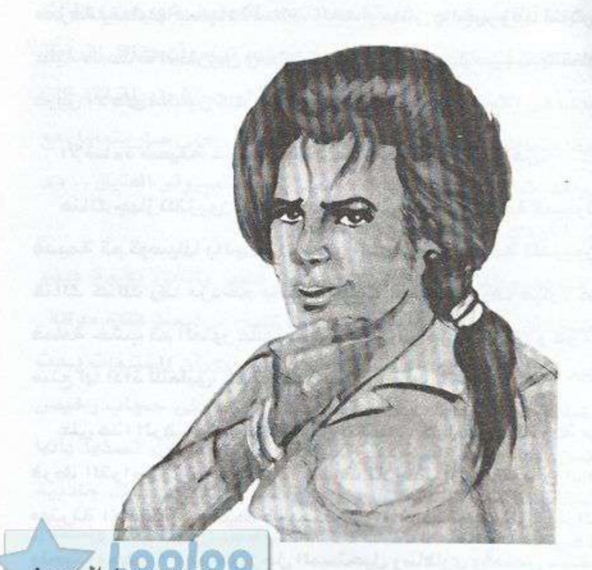
تلك هى قصتى التى أذكرها عن رقم ثلاثين .. أعتقد أننى أتيتك سؤلك .. ربما تحضرنى قصة أخرى عن رقم ثلاثين .. لكن - كما اعتدنا أن نقول - تلك قصة أخرى.

تمت

فانتازيا

روايات مصرية للجيب

30



- ١ -

يمكننى بسهولة أن أتخيل كل ركن فى المكان قبل أن أراه.

الأثاث الرخيص .. هناك أسر بعينها لديها نفس الأنتريه الخشبى العتيق الذى يتظاهر بأنه روكوكو. ولابد من قطعة قماش ممزقة يغطونها بسجادة صلاة. الجدار مطلى بالجير وقد تناثرت عليه ملصقات لمطربين وممثلات، مع لمسة ذكرية من أخيها تظهر فريق الأهلى ملتفين كالوحوش حول كرة قدم.

الإضاءة ضعيفة غالبًا وتعتمد على مصباح واحد واهن.

هناك جهاز تلفزيون صغير جدًا أو ـ على الأرجح ـ شاشة كمبيوتر قديمة تم توصيلها بالجهاز الصينى الذى يجعلها شاشة تلفزيون. هناك كذلك رف مزدحم بالكتب مثبت للجدار.. رف عبارة عن قطعة خشب تم العثور عليها عند أسطى إبراهيم النجار، و هو من صنع لها أداة للتعليق، ثم تم لف السلك حولها لتكون رفًا ..

على هذا الرف حشد من عناوين الكتب .. كلها فى حالة رثة من فرط القراءة مرة تلو المرة، وسوف تلاحظ أن معظمها روايات مهترئة الأغلفة .. خليط غريب من روايات دستويفسكى وبلزاك ونجيب محفوظ وقصص رجل المستحيل وسافارى وقصص ستيفن

زفايج. صاحب هذه المكتبة عث كتب لا يترك كتابًا فى حاله.

هناك مكتب عتيق متداع فرش بشرشف من الورق المقصوص بشكل زخرفى، وعلى المكتب هناك كوب شاى فارغ، وهناك بقايا شطيرة جبن ... ثم تلك الأقطاب المتشابكة التى تذكرك بالخوذة أو السيشوار الذى تضعه النساء لتجفيف شعرهن، وهناك سلك متآكل يتصل بجهاز لاب توب .. واضح تمامًا أن هناك إفراطًا شديدًا فى الاستعمال .. شهد هذا الكمبيوتر رحلة طويلة منذ كان عتيقًا يتعامل بنظام الدوس وعلامة المحث، حتى صار يتعامل مع النوافذ، ثم تبدل إلى لاب توب بعد تلف الكمبيوتر العتيق .. دى جى ٣ أو دى جى ٤ .. لا أعرف ما صار إليه ..

تراها جالسة أمام المفاتيح تدق عليها بأنامل رفيعة يبدو واضحًا أن صاحبتها تعمل فى البيت كثيرًا .. ليست فتاة مدللة. عبير عبد الرحمن .. لم تتغير كثيرًا سوى أن السنوات بدت واضحة على وجهها نوعًا، وقد غطت شعرها فى حجاب رخيص الثمن، وملامحها الشاحبة المنهكة .. لا يمكن أن تصفها بأنها جميلة .. لكنك كذلك لا تجرؤ أن تصفها بالقبح. هناك جاذبية ما فى هذا الوجه. هالات داكنة تحت العينين. العينان واسعتان مليئتان بالتساؤل. بسهولة تدرك أنها كائن رقيق واهن اعتاد

أن يكون الضحية لا القاتل، وروحها تستحق لقب (ملكة جمال الأرواح) فعلاً ، فهى لا تكذب ولا تحقد .. لكنها كذلك عاجزة تمامًا عن مواجهة هذا العالم الخارجى القاسى .

متى جاءت عبير للوجود ؟

لا أذكر .. كان هذا فى التسعينيات .. ربما عام ١٩٩٥ أو عام قبل ذلك أو بعده. عندما بدا أن رفعت إسماعيل قادر على أن يقف على قدميه ويخوض صراعاته الخاصة، خطر لى أن أعيد إحياء حلم قديم كان يزورنى فى طفولتى دومًا، ويعذبنى بلا توقف؛ أن أستطيع دخول مجلة ميكى لأمرح مع بطوط وعم دهب .. وأركب سيارة الأول المضحكة وأدخل بيته ذا الحديقة وصندوق البريد المضحك. رأيت فتاة تعمل فى نادى فيديو قرب بيتنا .. هذه الفتاة كانت تمضى الوقت فى القراءة . تقرأ بنهم .. تقرأ بتوحش. كان واضحًا أنها فقيرة من ناحية المال والجمال والتعليم، لكن نهمها فى القراءة كان يمنحها عوالم غير محدودة تزورها وهى بعد جالسة فى ذلك المكان الضيق وسط شرائط الفيديو. هكذا ولدت عبير .. كان مشهدًا طريفًا عندما دخلت نادى الفيديو يومًا فوجدت الفتاة تطالع فى نهم عددًا من فانتازيا، وهى بالطبع تجهل أننى !... كيف لو عرفت أنها هى بطلة الكتيب الذى تطالعه !

فيما بعد تم اتهامى بدستة من المصادر التى سرقت منها هذه الفكرة، بدءًا بـ (أليس) فى بلاد العجائب وانتهاء بعشرات الأفلام التى لم أرها. لاحظت كذلك ارتباط الاتهامات بآرائى السياسية ؛ عندما أقول كلامًا لا يروق للفريق الفلانى ، يكتشف أفراد الفريق فى نفس الأسبوع أن فانتازيا مسروقة !

طبعًا يمكنك أن تصدق أو لا تصدق أن هذه فكرتى خالصة، وليست سوى حلم طفل تمنى دخول مجلة ميكى . فيما بعد رأيت فيلم (استعادة كلية - ١٩٩٠) لشوارزنجر عن قصة قصيرة لعبقرى الخيال العلمى (فيليب ديك) اسمها (يمكننا تذكر ذلك لك بسعر الجملة !). حيث يقوم الكمبيوتر بخلق الحلم الخاص بك .. الفكرة قريبة جدًا ، ولكنى رأيتها متأخرًا بعد صدور فانتازيا بأعوام. فى فيلم (زهرة القاهرة القرمزية) لـ (وودى ألين) يخرج بطل الفيلم من الشاشة ليعيش مع البطلة فى عالمنا ... لا شك أن الفكرة تكررت كثيرًا، لكن أؤكد لك أننى لم أسرقها، كما أننى لا أتهمهم بأنهم سرقوها منى !.

عندما قرأ الأستاذ حمدى الكتيب الأول راقت له الفكرة، وخصوصًا عبارة الغلاف الأخير: « الفرار .. الفرار .... ». كان يهتم بألف شىء فى الوقت نفسه، فلا تعرف إن كان يصغى لك أم لا ..

تكرر كلامك عدة مرات ولا تفهم إن كان قد وافق أم هو معترض. لذا اندهشت عندما وجدت أنه طبع العدد الأول بسرعة قياسية. لقد صرت صاحب سلسلتين ! بل ثلاث؛ لأن روايات عالمية للجيب صارت لى فى نفس الوقت تقريبًا .

الدرس الثانى الذى تعلمته مع الأستاذ حمدى مصطفى هو أن العدد الثانى فى أى سلسلة لا يعجبه أبدًا ! حدث هذا مع فانتازيا وسافارى وما وراء الطبيعة ..

هكذا خرجت عبير للوجود، وكان لقصصها طابع فريد، ربما هى السلسلة الأكثر ميلاً للتثقيف ، وقد أحبها القراء المولعون بالخيال، وأحبها القراء العمليون الذين يريدون معلومة فى كل شىء يقرءون !، لكن القراء الذين يحبون الاندماج فى القصة وعدم تحطيم الحائط الرابع، لم يحبوها قط .

فانتازيا مليئة بالتغريب والبريختية، حيث لا أكف عن تذكير القارئ أن هذا كله حلم .. هذا كله ليس حقيقيًا ... لعل هذا نتيجة لتأثرى فى فترة من حياتى بعالم برتولت بريخت . هذا أسلوب يحبط القراء الذين يعشقون الغوص فى القصة . هؤلاء الذين يلومون بطل القصة على تصرف أحمق ولا يلومون المؤلف نفسه !. لهذا ظلت سلسلة فانتازيا ذات خصوصية معينة ، ولا تناسب

الجميع. ولو طبقت عليها قواعد الرواية فلن تنطبق، لأن القصة أقرب إلى مقال نقدى طويل منها إلى قصة. هناك قصص تقوم فيها عبير بتصميم القصة بنفسها أمامك ؛ مثل (البطل ذو الألف وجه) و(قصة كل ليلة).

وأنت يا عبير ..

ماذا يمثله رقم ثلاثين بالنسبة لك ؟

فكرت عبير قليلاً ورشفت رشفة من كوب الشاى ، ثم أدركت أنه فارغ، فضحكت فى حرج وقالت:

ـ ثلاثون ؟ لا أدرى .. كان هذا منذ زمن عندما تجاوزت سن الثلاثين .. ليس هناك شىء معين »

ـ « ربما يذكرك بثلاثين قطعة من الفضة التى تقاضاها يهوذا الإسخريوطى ؟ »

ـ « لا أعرف .. لا أرى فى فانتازيا سوى ما قرأت عنه فقط »

ـ « وماذا قرأت عن ثلاثين ؟ »

فكرت من جديد ثم قالت فى خبث:

ـ « سوف يوحى لى هذا الكتيب بأفكار حول الثلاثين .. أقصد

الكتيب الذى تكتبه الآن ! »

هذه متاهة كريتانية أخرى .. أنا أريد معرفة معنى ثلاثين لها، وهى لن تعيش مغامرة مع رقم ثلاثين إلا بعد قراءة الكتيب الذى يتحدث عن رقم ثلاثين بالنسبة لها !

مددت يدى إلى الرف وانتقيت كتابًا سميكًا اسمه :

«الحروب الأوروبية»

رحت أقلب الكتاب حتى وجدت الفهرس، ثم وضعته أمامها وقلت :

- « سوف تجدين هنا حرب الثلاثين سنة .. أشرس حرب عرفتها أوروبا قبل الحربين العالميتين.. لا شك أنها قادرة على منحك بعض الأفكار.. »

راحت تقلب الصفحات ثم هزت رأسها ..

قالت لى :

- « سوف أطالع الجزء الخاص بالحرب، ثم أثبت الأقطاب وأدخل عالم الحلم .. ليس هناك ما يضمن أن أرى هذه الحرب فى حلمى . شريف كان قادرًا على تحديد الحلم، أما أنا فلا .. الأمور عشوائية »

قلت لها :

- « سأقبل النتيجة»

وجلست فى ركن الحجرة الكئيبة ورحت أطالع رواية لـ (مارسيل بروست) .. بعد دقائق سمعت صوت هدير الجهاز. رفعت رأسى فوجدت أنها ثبتت الأقطاب على رأسها وأغمضت عينيها..لم تودعنى أو تقل شيئًا .. يبدو أنها دخلت عالم الحلم فعلًا .. لقد انتهت من قراءة هذا الفصل وهو ليس كبيرًا على كل حال . سوف أنتظر حتى تفيق كى أعرف حلمها .

يمكننى تخيل ما سيحدث .. السفر لفانتازيا .. القطار المضحك .. المرشد السمج ... هذه طقوس إجبارية ..

ليس هناك شىء أفعله حاليًا سوى الاستمرار فى القراءة . سوف تعود لعالمنا وتحكى لى . فيما مضى كان شريف يملك القدرة على متابعة الحلم ، لكن أين شريف الآن ؟ كان عبقريًا وما زال ..



ـ ٢ ـ

جذب المرشد الحبل فتوقف القطار المضحك .. القطار الملون الذى يذكرك بقطارات الملاهى . لولا الملامة لتخيلته بلسان وعينين ضاحكتين مثل الرسوم المتحركة ..

قال لها المرشد وهو يترجل ويساعدها على النزول :

ـ « أنت فى بافاريا .. مرحبًا بك »

أدركت عندما ترجلت من القطار أنها تلبس ميدعة وحذاء خشبيًا ومنديل رأس .. تبدو قريبة جدًا من جو القصص، حتى كأنها فى عالم الأخوين جريم ..

قالت له :

ـ « لحظة .. أنا لم أطلب دخول عالم الأخوين جريم »

ـ « ومن قال إنك فيه ؟ .. هذا العالم يختلف عن عالم جريم فى كل شىء .. بل هو النقيض نفسه »

ـ « لكنها ذات الفترة ؟ »

هز رأسه فى ملل وقال :

ـ « كل الفلاحات البافاريات يتشابهن لو أردت رأيى .. »

رفعت رأسها لتنظر من حولها ..

كان المشهد شنيعًا .. هذا سهل مترام .. لكنه لم يكن مزروعًا بالعشب .. كان مزروعًا بالجثث والأطراف المبتورة .. رائحة البارود تفعم الجو وهناك دخان يغطى كل شىء تقريبًا . يبدو أن هناك مدافع خلف الأفق ترمى حمولتها القاتلة فترتج الأرض ... يبدو أن هناك جنودًا كذلك ..

ومن بعيد رأت فرقة خيالة تركض وهم يطلقون الرصاص بلا توقف ، من بنادق عتيقة مما يحشى مرة واحدة مع كل طلقة .

صعد المرشد للقطار وقال :

ـ « هيا .. أتمنى لك التوفيق ! »

صرخت فى ذعر :

ـ « لحظة .. ! .. أريد خلفية ما .. لا أعرف أين أنا .. هل ذهبت لجهنم ؟ »

أخرج القلم الزنبركى وراح يضغط على قمته فى حركة عصبية، وقال :

ـ « هذه هى حرب الثلاثين عامًا التى وقعت فى أوروبا من عام

١٦١٨ إلى ١٦٤٨ .. سوف تلاحظين ظاهرة مهمة هى أن هذه الحرب دامت ثلاثين عامًا !... صدفة غريبة أن يطلق على حرب دامت ثلاثين عامًا اسم (حرب الثلاثين عامًا) »

ـ « هل تمزح ؟ »

ـ « ليس بالضبط .. هناك حرب يطلقون عليها اسم (حرب المئة عام) استمرت من عام ١٣٣٧ حتى عام ١٤٥٣ !»

ـ « ولماذا قامت حرب الثلاثين عامًا ؟»

ـ « مثل الحروب الصليبية .. مبررات دينية ، لكنها فى الحقيقة صراع على النفوذ لا أكثر .. هذه من حروب الكاثوليك والبروتستانت الشهيرة .. كل تاريخ أوروبا تقريبًا حروب بين الكاثوليك والبروتستانت . وقد كانت حربًا كارثية أدت لفظائع لا تنتهى وأوبئة ومجاعات .. لقد تدنى تعداد ألمانيا من كثرة من ماتوا فيها .. »

ـ « وأى عام هذا ؟ »

قال محذرًا بإصبعه :

ـ « العام ١٦٢٩ ... هذا تاريخ مهم جدًا وسوف تعرفين السبب حالاً »

نظرت للسهل من حولها وقالت :

ـ « لا أعتقد أننى سأعيش طويلا .. سوف تهوى على قنبلة حالا .. لا يمكن تجاوز هذا السهل»

لكنه كان قد جلس فى مقعده، وأعطى الإشارة ..

قطار فانتازيا ينطلق بسرعة عبر السهل وهى تجرى وراءه وتصيح . مذعورة فعلًا تسعل بسبب الدخان الذى يملأ الجو من حولها .. هناك أكواخ محترقة وجنود فى الخنادق ينزفون طالبين جرعة ماء . توقاااف ! ... توقف يا أحمق تبًا لك !

إن الحرب لجحيم، والأسوأ أن تجد نفسك وسطها لأن قطارك قد تخلى عنها ..

نظرت للخلف فرأت ذلك الفارس ينطلق بجواده نحوها وهو يلوح بسيف بتار .. له شارب جرمانى كث يتصل بسالفيه كما كانت ترى فى كتب التاريخ .. يعتمر قبعة كبيرة تذكرها بصور بلاط لويس السادس عشر، ويحمل على ظهره بندقية، لكنه كذلك يستعمل السيف ..

سوف يقطع رقبتها أو يخطفها .. لا يوجد خيار ثالث . لا يبدو ودودًا جدًا .. انطلقت تجرى .. وتثب فوق الخنادق غير عالمة إلى

أين تذهب. هذا سهل .. لا توجد مخابئ ..

الفارس يتكلم بلغة غريبة لا تعرفها .. قريبة جدًا من الألمانية لكنها ليست ألمانية. يقول شيئًا من قبيل:

ـ « توقفى يا امرأة .. أنت لى ! »

سقطت على جانب الخندق والتوى كاحلها، لكنها كانت تعرف أنه لن يفوز بها .. سيتوقف قلبها ذعرًا قبل أن يمسها ..

وفجأة برزت ذراع من الخندق ووثب رجل ليجر الفارس من فوق صهوة حصانه . سقط الفارس المخيف فى الخندق ، فحاول أن يستخدم سيفه لكن المهاجم فى الخندق كان قويًا وكان يملك عنصر المباداة . سرعان ما أمسك بساعد الفارس ليعطل سيفه، ثم هوى بقبضته على وجهه .. هوى عدة مرات إلى أن همدت طاقة الفارس وغاب عن الوعى . انتزع السيف من يده وغرسه بمجمع قبضتيه فى صدره ..

وقف يلهث مراقبًا الجثة التى أضافها للمقابر .. يبرز السيف من صدرها كأنه علم غرسه مستكشف فى أرض جديدة .

كان منقذها فتى وسيمًا أشقر الشعر، لوحت الشمس بشرته وهناك ندبة طويلة تحت عينه اليسرى .. لم يكن يعتمر قبعة،

وكان له شعر بنى طويل يغطى كتفيه ..

لم تهرب .. وقفت تنظر لمنقذها لاهثة ..

قال لها فى خشونة بألمانية واضحة :

ـ « ماذا تفعلين هنا يا حمقاء ؟ هذا السهل ليس مكانًا للنساء.. ليس مكانًا للرجال كذلك، بل هو مكان للموتى»

كادت تشرح له قصة المرشد الهارب والقطار لكنه لن يفهم ..

قال لها وهو يثب من الخندق:

ـ « تعالى .. سوف أعيدك لبيتك »

كان الحصان الذى سقط صاحبه يقف بعيدًا وهو يضرب الأرض بحافره فى غضب وتوتر، فاقترب منه وربت على عنقه ومنخره، ثم ساعدها على الصعود لظهره وصعد بعدها، ليمسك بلجام الحصان القلق .. لكنه كان فارسًا واثقًا كما هو واضح ..

ـ « من أين أنت ؟ »

ـ « من فورتسبيرج »

لم تكن تعرف الاسم لكنها وجدته على لسانها كالعادة .. هذه البلدة قريبة من ماينتز وفرانكفورت .. قال لها:

ـ تحت إمارة فيليب أدولف .. هيا بنا»

وانطلق الحصان يركض وسط السهل الدامى ، ويثب فوق الجثث .. أكثر من مرة صفر الرصاص جوار أذنها، وفى مرة أخرى هوت قذيفة مدفع أمامها فدوى انفجار هائل جعل الحصان يقف على قائمتيه الخلفيتين، لكنها تمسكت بفارسها بقوة، وهو يمسك باللجام بقوة .. وسرعان ما عاد الحصان يركض ..

ترى النهر من بعيد وتدرك أنه نهر ماين .. يبدو أنه يغص بالجثث الممزقة وقد صار ماؤه أقرب للدم ..

بعد السهل والنهر هناك دغل .

بعد الدغل هناك مجموعة من الأكواخ ..

أكواخ فقيرة جدًا من الخشب وقد غطيت أسقفها بأغصان الشجر. هناك فى المركز وعاء يغلى ما فيه من طعام، وامرأة مسنة بثياب العصر تقف جوار المرجل ..

هناك أطفال يلعبون هنا وهناك لكنهم توقفوا لدى رؤية الجواد المطهم وفارسه الوسيم الذى يركب خلفه فلاحة. وهرعت امرأة فى منتصف العمر خارجة من كوخ، لتحتضن ساق عبير التى ما زالت على صهوة الجواد :

ـ « هانا !.. شكرًا للرب ! »

بدأ عدد الواقفين يتزايد .. وظهر فلاح له شارب كث وقال :

ـ « فكرة حمقاء هى أن تذهبى كل هذه المسافة بحثًا عن كرنب »

قالت عبير التى عرفت أن اسمها هانا :

ـ « الأطفال يموتون جوعًا يا عماه »

قالت السيدة التى بدا واضحًا أنها الأم :

ـ « لن تجدى الكرنب هناك .. ليس عبر السهل سوى الموت والدمار .. أنت تصرفت بحماقة، وقد شاء الرب ألا أفقدك .. من هو هذا الفارس الوسيم ؟»

وثب الفارس برشاقة مترجلاً، ثم وضع كفيه متقاطعتين لتهبط عبير فوقهما كأنهما جزء من السرج، وقال :

ـ « أنا ضابط فى الجيش رأى ابنتكم موشكة على الهلاك»

ترجلت عبير فى مرح واحتضنت أمها، وفكرت أن تدعوه للغداء لكن أى غداء ؟ هذا القدر فارغ .. هناك قصة سمعتها فى طفولتها عن أم راحت تغلى الحجارة لأطفالها حتى يظلوا على أمل الى أن

يغلبهم النوم .. ثم رآها عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فأطعمها وأنقذها هى وأطفالها. لا تعرف مدى دقة هذه القصة، لكن فكرة الأطفال الذين ينتظرون جوار إناء فارغ ولا يعرفون أنه فارغ تحطم أعصابها ..

كان الرجل ذكيًا فقال على الفور أنه شبعان، ثم اتجه لسرج الحصان وراح يعبث فيه .. صاح فى مرح:

- « لقد كان هذا الفارس الذى قتلناه أكولًا .. معه خبز وجبن »

ثم انتزع الخراج وألقى به لعبير، ولوح بيده مودعًا ..

هتفت عبير:

- « هل سنراك ثانية ؟ »

قال فى مرح:

- « لو لم يطر رأسى بطلقة مدفع أو نصل سيف، سأعود بالتأكيد»

ووثب إلى ظهر الحصان وركل خاصرتيه بكعبيه فانطلق مبتعدًا ..

وقفت تراقبه بينما التف حولها أفراد الأسرة .. كانوا فى حال

سيئة جدًا ممزقى الثياب يبدو عليهم السقم والجوع. هذه الحروب اللعينة تقضى على المدنيين تمامًا ..

وجدت فتاة رقيقة تهرع نحوها فتعانقها .. بالطبع من الوارد أن تكون رقيقة، ولكنها متسخة الوجه قذرة الثياب جدًا... كانت فى نفس عمرها.

- « هانا !.. عدينى ألا تكررى هذا الجنون ! »

قالت الأم الدامعة:

- « أختك بخير يا يولاندا .. لا تخافى .. أنقذها هذا الفارس الشهم»

ثم نظرت للخراج الذى جاء به وأعلنت أنهم سيتناولون عشاء ممتازًا من الخبز والجبن. تبًا !.. لم تكن عبير تحب الخبز والجبن، لكن من الواضح أن العثور على طعام فى حرب الثلاثين عامًا صعب جدًا ..



ـ ٣ ـ

أسرة فلاحين بسيطة تقيم فى فورتسبورج.

نوعية الأسر التى تصير وقودًا لنيران الحروب .. لا ناقة لها ولا جمل، لكنها تتحمل .. إنه العام ١٦٢٩ أى أن أحد عشر عامًا قد مر من هذه الحرب اللعينة الخالية من المبررات.

هناك الأب الذى يحاول جاهدًا عبور محيط الحياة الثائر بأسرته. عنده فتاتان جميلتان وزوجة لا بأس بها، وهذه مصيبة فى زمن الحرب .. وعنده طفلان وهذه كارثة فى زمن المجاعات هذا ..

لكنهم يعتمدون على قوة وسلطان الأمير فيليب أدولف فون أربيرج .. الحاكم القوى للمقاطعة. الرجل الذى يصد عنهم الأعداء وهجمات السويديين ..

هكذا تمر الأعوام .. صراع مزمن مع الجوع .. بحث عن البطاطس وسط الأعشاب .. مغامرات البحث عن كرنب كالتى كادت تودى بها ... محاولة اصطياد طائر الطهيوج .. لقمة هنا أو هناك .. محاولة صيد سمكة من نهر الماين ..

ومن حين لآخر يرون جيشًا ذاهبًا للحرب .. وبعدها بأيام يرونه

عائدًا محملًا بجثث قتلاه ..

أحبت عبير أختها الرقيقة يولاندا. كانت فتاة كأنها خرجت من قصص الأطفال الخيالية أو قصص (جاك). عينان واسعتان صادقتان محبتان للحياة ..

كانت كذلك ذات عقل لا يكف عن العمل برغم أنها غير متعلمة.

ذات يوم سقط جار لهم مريضًا بالتيفوس، فأصرت على أن تذهب لتمرضه دون علم الأم .. وظلت ترعاه عدة أيام وتسقيه مشروبات تعلمت تركيبها من أنجلينا العجوز، وصنعتها بنفسها حتى استطاع أن يقف على قدميه.

والغريب أنها لم تكن تفتخر أبدًا بما تفعله.

ذات يوم جلست تخيط قطعًا من القماش معًا فى شكل خيمة ، ثم سكبت عليها الشمع الذائب ... وقامت بخياطتها من أسفل بطريقة خاصة ...

ربطت القماش فى سلة ووضعت فى السلة إناء من الفخار، ووضعت عليه بعض الأعشاب لتحترق ... رأت عبير الهواء الساخن يتصاعد ليملأ الخيمة القماشية. وفجأة بدأت السلة ترتفع ...

لقد توصلت لعمل منطاد صغير ..

هتفت عبير:

- «أنت عبقرية»

وراحت تتواثب كالطفل .. أطفال القرية كذلك رأوا المشهد فركضوا صائحين وراحوا يتواثبون كالقردة ... هيه هيه ! ... شعور من يرى منطادًا لأول مرة فى حياته فى عصر بلا قراءة ولا تلفزيون ولا إنترنت ..

جاءت الأم تراقب المشهد، ثم قالت ليولاندا:

- «لا تكررى هذه الأفعال ثانية !!»

نظرت لها عبير فى دهشة:

- «لمَ ؟ من حقها الحصول على بعض الترفيه فى زمن أسود كهذا ..»

قالت الأم فى حزم:

- «قلت لك ألا تفعلى هذا .. أبدًا»

ثم استدارت فى حزم وعيناها تشعان نارًا ... ونظرت يولاندا لعبير فى دهشة وهزت كتفيها .. لن نفهم هؤلاء الكبار أبدًا ..

★ ★ ★

الحقيقة أن يولاندا الحلوة لم تكن تهمد أبدًا، ولم يكف عقلها عن التفكير ..

ذات ليلة أيقظت عبير من النوم الصعب على الأرض وقالت لها:

- «سوف أريك شيئًا مبهرًا ..»

فركت عبير عينيها فى ملل وإرهاق .. لا يوجد شىء مبهر فى العالم لا ينتظر حتى الصباح، لكن يولاندا كانت مصرة .. هكذا نهضت عبير وتساءلت وهى تتثاءب:

- «أين ؟»

- «فى المستنقع على حافة الغابة !»

- «سيكون هذا خطرًا .. ليس فى ساعة كهذه ..»

- «سوف نزحف زحفًا ..»

هكذا زحفت الفتاتان مغادرتين الكوخ، مطمئنتين إلى نوم الأب والأم والإخوة .. هناك كانت النار تتوهج فى الأفق .. معركة عنيفة دارت هنا عصرًا وما زالت نيرانها مشتعلة. يمكنك لو أصخت السمع أن تسمع أنين الجرحى .. صهيل حصان تهشمت قدمه ..

لكنهما تذهبان إلى المستنقع البعيد النائم تحت ضوء النجوم ..

وقفتا هناك ترمقان المياه المظلمة، ثم صاحت عبير:

- « ما هذا ؟»

كانت هناك شعلة زرقاء غريبة تتحرك فوق مياه المستنقع بعيدًا . الشعلة الغامضة التى أهلكت مستكشفين كثيرين لاحقوها عبر التاريخ. يمشون وراءها مفتونين فيغوصون فى المستنقع للأبد ..

قالت يولاندا:

- « أنجلينا العجوز تعرف كل شىء... قالت لى إنها أرواح الموتى التى تخرج من الأجساد قبل الصعود للسماء »

كان المشهد يثير القشعريرة، لكن عبير تعرف الكثير طبعًا وتعرف أن هذه ظاهرة فيزيائية معروفة اسمها وهج المستنقعات أو (النار الغبية ignis fattu) بسبب احتراق غازات الميثان والغازات، لكنها هنا كانت فلاحة شابة ترى هذا المشهد للمرة الأولى .. وشعرت بقشعريرة ..

- « دعينا نرجع »

لكن يولاندا الظامئة للمعرفة ظلت تنظر فى انبهار . تشعر أن هذا اكتشافها الخاص..

هنا سمعت الفتاتان صوتًا خشنًا فوثبتا فى الهواء مترين .. ونظرتا للخلف فرأتا أنه النجار المسن بيتر .. رجل ثمل لا خطر منه، ومن الواضح أنه جاء هنا ليتبول ..

قال لهما بعد ما سعل وبدأ التبول فعلًا قبل أن تديرا وجهيهما:

- «أيتها الشقيقتان .. عودا للبيت حالاً .. هذا مكان خطر .. »

لم تحتج الفتاتان لأن يطلب هذا لأنهما انطلقتا عائدتين إلى البيت. لقد رأيتا ما يكفى .. كان قلباهما يتواثبان من الانفعال، لكن على باب الكوخ صار الرعب مزاحًا وضحكات مليئة بالدلال ...

وعندما نامت عبير كانت تشعر بسعادة لأن يولاندا أختها ...

كل شىء مع يولاندا جميل طريف .. لا يمكن أن تشعر بالملل لحظة ..

★ ★ ★

بعد أسبوع حدث شىء مروع ..

جاء جنود اقتحموا البيت .. جنود الأمير فيليب أدولف فون أربيرج .. فتحوا الباب الخشبى عنوة، فلما جاء الأب مذعورًا يسأل

عما هنالك تلقى ضربة على صدره، وقال قائدهم:

ـ « يولاندا .. ابنتك .. أين هى ؟ »

من مكان فى الكوخ الضيق ظهرت يولاندا خائفة ممتقعة .. وقبل أن يفهم أحد ما حدث هوى على رأسها دبشك البندقية، ثم ظهرت الحبال لتقيدها، بينما عبير تصرخ فى هستيريا ، والأم تتساءل فى بلاهة:

ـ « ماذا حدث ؟ »

والأب حاول أن يقاوم فتلقى ضربة بمؤخرة بندقية أخرى، فسقط أرضًا ..

ظهر من بين الجنود واحد متأنق يزين قبعته بالريش وقد بدا عليه الغرور، ونفش صدره وقال:

ـ «لدينا أوامر من الأمير الأسقف فيليب أدولف فون أربيرج باعتقال هذه الساحرة ! »

ـ « ساحرة ؟ »

قال فى غرور:

ـ « يمكنكم سماع كل شىء فى المحاكمة»

وانصرف الجنود وهم يحيطون بيولاند الرقيقة المذعورة التى لا تصدق ما يحدث ..

لا داعى طبعًا لوصف الصراخ ولا ذعر الأطفال وبكاء الأم .. هذه مشاهد تحطم الأعصاب .

المحاكمة كانت مهزلة ..

لم يسمح لها بالكلام أو قول شىء .. كانت منصة خشبية قد نصبت جوار نهر الماين جلس عليها عدد من الضباط ورجال الدين مكفهرى الوجه .. أمامهم أوراق ..

أدركت عبير فى هلع أن الأمر لا يتعلق بأختها .. بل هناك عشرات .. ربما مئات الأشخاص المتهمين بالسحر ..

قال المدعى العام دون أن ينظر لوجه يولاند الدامع الملىء بالكدمات:

ـ « يولاند هنسنج .. تمارس السحر منذ عام .. اخترعت أشياء شيطانية تجعل القماش يطير فى السماء .. وقامت بتمريض مريض تيفوس دون أن تخاف وسقته مشروبات شيطانية فشفى .. مع أن مريض التيفوس لا يشفى .. ثم شوهدت فى المستنقعات ليلًا تجمع أعشابًا لوصفاتها السحرية .. بيتر النجار شهد بذلك ... »

لم يطلبا رأيها ولا دفاعها عن نفسها ..

ـ « العقوبة هى الحرق !! »

سقطت عبير مغشيًا عليها وكذا فعلت الأم ..

الحقيقة أن هذا هو عصر حرق الساحرات الذى صاحب أعوام حرب الثلاثين عامًا .. كانت الكوارث والأوبئة فى كل مكان .. وكذلك المجاعات، لذا افترض الناس أن هذه كلها أعمال سحر .. (*)

كل واحد كان يبلغ عن جيرانه .. صيد الساحرات صار هواية ..

بلغت الموجة الذروة عام ١٦٢٩ وفى هذا الإقليم بالذات، فورتسبيرج .. الأمير الأسقف فيليب أدولف فون أربيرج كان راغبًا فى تدعيم سلطته فى هذه الأصقاع وإظهار حزم الكنيسة الكاثوليكية. هكذا تم حرق ٢١٩ شخصًا فى فورتسبيرج فى هذا العام .. وتم حرق ٩٠٠ شخص آخر فى أرجاء البلاد ..

فى مكان آخر من بافاريا تم حرق ٦٠٠ ساحرة .. وفى مكان آخر تم حرق ٣٦٣ ..

(*) واضح طبعًا أن المعلومات حقيقية ...

لقد صار الحرق موضة فى كل أوروبا ..

فيما بعد كتب المفكر الدينى (فردريك سبى) كتابًا ينتقد فيه هذه المحاكمات وهذا الحرق، وهو كتاب (كوشيو كريمناليس) .. هذا الكتاب استطاع أن يقضى على ظاهرة حرق الساحرات فى أوروبا كلها.

كانت حماقة عامة وجنونًا لا يمكن وصفه ..

لكن ككل الضعفاء كان على يولاندا أن تدفع ثمن هذا الجنون ..

ـ ٤ ـ

لو لم تكن من الطراز الذى يحب حرق الساحرات، فأنا لا أنصحك أن ترى مشهد حرق الساحرات !

هذا يوم رهيب . الكثير من الصراخ والعويل، وهناك نحو مئة عمود منتصب .. كل عمود ينتثر القش تحته وهناك رجل أو فتاة مقيدة إلى العمود وهو أو هى تصرخ ..

لا جدوى .. لا سبيل للرحمة ... هذا يوم قيامة مصغر يصنعه الإنسان لأخيه الإنسان.

الجلاد يحمل شعلة ويمشى فى وقار وتؤدة من عمود لآخر .. ينظر فى تشف للضحية ثم يهوى ليشعل القش ... يرتفع الدخان والنار.. يلقى نظرة اطمئنان ثم ينتقل لعمود آخر ..

يقف الأمير الأسقف فيليب أدولف فون أربيرج فى وقار حاملًا صولجانه يراقب هذه المذبحة .. لقد تمت كلمة الرب .

لم تكن عبير تعرف أين يولاندا .. بالتأكيد سوف ينقذها الفارس الأشقر الوسيم .. سيظهر فى آخر لحظة ويمزق الحبال ويحملها على فرسه ..

لكن أين هو وسط هذا الجحيم ؟

يجب أن تركض وسط هذه الأعمدة بحثًا عنها، لكن ما الجدوى ؟ .. ليس مشهد احتراق أختها مما يُشاهد ..

تشم رائحة الشياط وترى الدخان يرتفع لعنان السماء فتبكى ..

تسقط مغشيًا عليها ثم تصحو من جديد وتصرخ ..

تلك أعوام رهيبة بلا شك .. سوف يذكر الناس حرب الثلاثين عامًا طويلًا ، لكنهم سيذكرون مسلسل حرق الساحرات بالذات. الجنون الذى عم بافاريا فجعل الجار يسلم جاره ..

لا فرسان ..

كل المقيدين يحترقوووووووون !!!

هرعت عبير هاربة حتى بلغت النهر ..

ارتمت على الضفة تبكى وتنشج .. واستدارت للخلف فرأت الدخان يتصاعد فى خط الأفق كله. لا بد أن النار أحرقت الجميع ..

يولاندا الذكية البارعة قد دفعت ثمن ذكائها .. فى عصر صيد الساحرات يجب أن تكون حذرًا جدًا . فى عصر محاكم التفتيش كانت تكفى ندبة على جسد المرأة كى تتهم بأنها تنام مع الشيطان،

وقد رأينا فى قصة أحدب النوتردام كيف كادت أزميرالدا تحرق لأن لديها جديًا.

هنا سمعت عبير صوتًا وراءها .. هل هو الفارس الوسيم ؟ تأخر جدًا ...

نظرت للخلف فوجدت العجوز أنجلينا ..

نهضت لترتمى فى حضنها .السيدة العجوز الطيبة التى لها رائحة (الهيل) أو الحبهان .. أناملها المعروقة تعبث فى خصلات شعرها ..

ـ «لا تبكى يا صغيرة ... أنا مثلك كنت أحب يولاند كابنتى »

وشعرت بها تجرها من يدها ..

لا تدرى متى ولا كيف دخلت كوخ العجوز .. الكوخ القذر الذى تعبث فيه ثلاث دجاجات، وهناك قدر على الموقد .. وثمة قط أسود ينظر لها فى فضول ..

أرقدتها العجوز على الأرض .. كانت عبير محمومة تهذى ، وفى لحظات كانت ترى يولاندا خارجة من النار وهى تضحك .. أو ترى أنهم يحرقونها هى ..

كانت العجوز تضع كمادات على جبينها وتسقيها أشياء ..

عندما جاء المساء فتحت عبير عينيها ..

رائحة الشياط فى الجو تشى بأن اليوم كان صاخبًا فعلًا ، كما تقول بوضوح أن هذا كله لم يكن كابوسًا. فى مكان ما من السهل تقف يولاند مربوطة إلى عمود.. متفحمة ...

قالت العجوز:

ـ «أعرف ما تشعرين به »

ـ «مستحيل أن تعرفى ! »

بعد صمت قالت العجوز:

ـ «أنا أعرف أنك ترغبين فى الانتقام .. لقد تعذبت هذه البائسة كثيرًا وكانت بريئة تمامًا لكنهم أساءوا فهم براءتها ... لهذا أريد الانتقام .. سوف أمنحك القدرة على الانتقام »

قالت عبير وهى ترتجف:

ـ «الأمير فيليب أدولف فون أربيرج فى قلعته .. لا أحد يقدر على أن يمسه أو يدنو منه»

ـ « السحر يقدر »

نظرت لها عبير فى حيرة فقالت:



ـ «ألم يخطر ببالك قط أننى ساحرة ؟ ساحرة حقيقية .. لست بريئة مثل أختك ... ولأننى ساحرة فقد استطعت خداع الجميع .. لم يشك فى أحد »

نهضت عبير وهى ترتجف، فقالت أنجلينا :

ـ « سوف أمنحك فرصة الانتقام .. لكن عليك أن تتعلمى .. يجب أن تعرفى بعض ما أعرفه! »

هذه كانت البداية ...

★ ★ ★

يجب أن تستحم بمزيج الأعشاب الذى صنعته لها الساحرة .. مزيج غريب الرائحة لا تريد عبير أن تتخيل ما فيه من مكونات .. لابد أن الضفادع والخفافيش وتربة الموتى قد صارت نادرة فى السوق ...

لكنها فعلت ما طلبته منها المرأة .. وقفت تسكب السائل على جسدها بينما العجوز تدور حولها مرددة كلمات غير مفهومة ..

ـ « أنت الآن منيعة .. أقوى من الموت ذاته ... فقط سوف تزول التعويذة يومًا فتعودين لتكونى فانية»

ـ « ومتى تزول ؟ »

ـ « ليس قبل أن يكتمل الانتقام »

كانت دراسة مضنية فعلًا ...

كان على عبير أن تميز مجموعات كبيرة من الأعشاب، وأن تجيد أكثر من خلطة سرية .. كما أنها كانت تذهب للسهل ليلاً حيث تجمع بقايا الجنود الذين هلكوا فى الحرب .. هذه أجزاء مفيدة للتعاويذ السحرية كما تعلم ..

فى الليل كانت المرأتان تسهران وتطبخ العجوز على الموقد أكثر من مزيج وتحاول تعليم عبير ..

تعليم قاس بشع، لكن (عبير) كانت فى أمس الحاجة للانتقام كى تستعيد توازنها النفسى ..

علمتها الساحرة كيف تمسك بيد المجد وتشعل فيها شمعة، ثم تتقدم لتعبر أمام الحراس فلا يرونها لأنها صارت خفية .. يد المجد هى كف سجين ميت عولجت بطرق معينة .. راجع قصص الشيخ رفعت إسماعيل لتتذكر هذه الوصفة ..

علمتها كيف تمد يدها فى صدر من تريد فتنتزع قلبه بمخالبها ...

علمتها كيف تردد كلمات فيحترق من تريد الخلاص منه ..

علمتها صنع الدمى وكيف تخترقها بإبرة لتمزق صاحب الدمية ..

كانت عبير تعرف أن السحر كفر .. لكنها كانت فى فانتازيا حيث لا تملك خياراتها.. تتصرف كما فى الحلم فلا تقدر على السيطرة على كل التفاصيل ..

فى النهاية جاء العام ١٦٣١ .. مر عامان منذ احترقت أختها ..

الحرب فى ذروتها .. ما زال أمام هذه الحرب اللعينة سبعة عشر عامًا من الدم والقتال والجوع والطاعون والمجاعات ... لكن عبير قدرت أنها لن ترى النهاية ...

فى تلك الليلة قبلت الساحرة وشكرتها على كل ما قدمته لها ..

حملت يد المجد .. ومضت فى الطريق ..

أول ما فعلته كان أن اتجهت لبيتها ..

فتحت الباب فى حذر ودلفت للداخل .. ثم جثت تلثم أخويها .

تلثم أباها وأمها النائمين .. لو صحا أحدهم فلن يراها ..

ثم إنها اتجهت عبر السهل العريض ماشية جوار نهر ماين، قاصدة القلعة ..

القلعة العملاقة الشامخة فى الظلام .. لقد رفع الحراس الكوبرى المعلق ، لكن من قال إن هذا يمنعها من الدخول ..

أغمضت عينيها وتلت التعويذة فارتفعت فى الهواء ببطء ..

فى الظلام وجدت نفسها واقفة فى الطابية جوار حارس نائم ... اتجهت للباب وهبطت فى درج حجرى عتيق وسط مشاعل على الجدران ....

الدرج يقود للطابق السفلى .. سوف تجد الأمير .. ستجده عن طريق ما فى قلبه من قسوة. علمتها الساحرة هذا ...

أخيرًا هناك قاعة مفتوحة .. هناك مائدة هائلة، وهناك مدفأة ترسل اللهب الرقراق فى أرجاء المكان فترقص الظلال ...

الأمير فيليب أدولف فون أربيرج جالس يكتب شيئًا فى مجلد كبير .. إنه وحيد ..

غدًا سيكون هناك حرق المزيد من الساحرات ..

أنت اتهمت فتاة رقيقة بريئة بأنها ساحرة .. اليوم تقابل ساحرة حقيقية .. ! .. فلنر ما سوف تفعله !

كانت تحمل الشمعة فى يد المجد فوضعتها على المنضدة ..

التفت الرجل مذعورًا عندما رأى هذه الفتاة الشابة تقف جواره ... كان ضخمًا فظًا لكنه بدا كطفل مذعور للحظة ..

ضحكت عبير فى وحشية مستمتعة بالموقف. مد الرجل يده لسيفه يخرجه من غمده فلم يستطع .. لقد التصق النصل بالغمد .. حاول الصراخ فلم يخرج صوت من حلقه .. حاول النهوض فوجد أن قدميه تزنان طنين ...

قالت فى قسوة :

ـ « أنت تجرب السحر الحقيقى الآن ... والآن أرجو أن تجرب ما شعرت به أختى »

فتحت زجاجة صغيرة بأسنانها وسكبت محتواها عليه وهو يرتجف فى ذعر ... لا بد أنه ينادى الحراس فى فكره أو يهددها ...

ثم إنها وضعت شعلة الشمعة لتلمس السائل .. بدأت الشعلة تتوهج .. ثيابه تحترق .. نظرة ذعر هائلة فى عينيه .. توشكان على الخروج .. يئن من حنجرته.

رائحة الشياط .. جسد ينتفض ....

لو استطعت لأحرقتك ألف مرة لكن للأسف لا أملك سوى مرة

واحدة ..

لقد بدأ يتفحم .. نصفه تفحم والنصف الآخر يحاول الفرار ..

هنا سمعت صراخًا وضجيجًا بالخارج .. جدران القلعة ترتج ....

يبدو أن هناك من يقذفهم بالمدافع ....

ماذا يحدث ؟

غادرت المكان ومسرح الجريمة فوجدت الفوضى فى كل مكان .. الحراس يركضون ويصرخون .. هناك محاولة اقتحام للقلعة .. بل هى نجحت فعلاً ... لابد أن المهاجمين كانوا يحملون كبارى خاصة ساعدتهم على اجتياز الخندق ..

رأت أول الجنود السويديين يهرع عبر الردهة ملوحًا بسيفه . ضخمًا أشقر كصور الفايكنج فى خيالنا ..

هكذا عرفت أن هذا هو غزو الملك السويدى جوستاف أدولف، الذى سيدمر القلعة ويحتل فورتسبيرج . سيكون هذا الغزو هو نهاية عصر حرق الساحرات ..

لكنها غير خفية .. نسيت أن تسترد الشمعة ..



هرعت إلى الخلف لتستعيد يد المجد، لكنها فجأة أدركت أن الجندى السويدى أطار عنقها بسيفه .. رأت الدنيا فى وضع مقلوب عجيب .. ترى الأرض الحجرية وأحذية الجند وترى جسدها بعيدًا عنها ! ..

يبدو أن رأسها ما زال يرى العالم وهى لم تمت بعد .. لماذا ؟

فجأة فطنت للحقيقة المرعبة : التعويذة جعلتها لا تموت .. لا تموت حتى بعد ما طار عنقها !.... هذا أسخف مقلب مرت به فى حياتها ...

كيف الخلاص من هذا ؟

فجأة رأت المرشد يركع جوارها ويقرب رأسه من رأسها :

- « ألا ترين أن الوقت مناسب للرحيل ؟ لقد أتممت انتقامك»

- « .... »

لا صوت هنالك .. لا توجد رئتان تحركان حبالها الصوتية .. مشكلة قطع الرأس هى الخرس.

قال المرشد وهو يداعب القلم :

- « هذا مأزق كريه، لذا أرى أن علينا الفرار بسرعة .. سوف يهدم

جنود جوستاف القلعة كلها .. هيا بنا »

لا تعرف كيف ولا متى وجدت عنقها على كتفيها ..

كانا يغادران القلعة وسط السيوف والرصاص والدخان والصراخ .... ما زالت حرب الثلاثين عامًا فى ذروتها ...

وفى هذه اللحظة أدركت أن العالم يتلاشى وأنها تفتح عينيها ...

كنت أنا هناك أنتظر ..

★ ★ ★

عندما فرغت عبير من سرد قصتها كاملة دونت كل هذا فى مفكرتى ، ونظرت فى الساعة . حلمها استغرق فعليًا ربع ساعة ، لكن الأحداث تمت فى ثلاثة أعوام تقريبًا ..

اتجهت للباب فقالت فى وهن :

- « ألا تريد بعض الشاى ؟»

قلت لها باسمًا :

- « ليس الآن .. أعتقد أنك بحاجة للنوم بعد هذا الحلم الحافل .. أنت البشرى الوحيد الذى يبدأ ليلته بالحلم وبعدها

النوم .. هل تحلمين أثناء نومك ؟»

- « على قدر علمى لا .. يبدو أننى أفرغ عقلى الباطن كله فى فانتازيا فلا يبقى ما يقال!»

لم أسمع باقى العبارة لأننى خرجت فى الحارة المظلمة الباردة، وسط الكلاب العاوية وتنهدت ...

إن رحلة شاقة تنتظرنى حتى أصل لعلاء عبد العظيم ..

تمت

روايات مصرية للجيب

30

سافارى



مع علاء عبد العظيم

- ١ -

هذا الجو المميز الذى وصفته ألف مرة، ورائحة الليل الأفريقى، وعواء الوحوش فى مكان ما من الدغل . أستطيع أن أرى وحدة سافارى كما تخيلتها مرارًا .. حرف L المميز وسيارات الإسعاف التى تحمل شعار الوجه الأسود ، والهليوكوبتر الخاصة بهم التى سقطت عشرات المرات من قبل . الحديقة الممتدة التى جلس فيها بعض المرضى وبعض الأطباء ..

هذا مكان يذكرك ببرج بابل .. يمكنك أن تميز ملامح عربية وأفريقية وغربية وآسيوية .. هذا الطبيب الضاحك بالتأكيد جاء من نسل الفايكنج، وهذه الممرضة توشك على أن تكون قد خرجت من الشاهنامة الفارسية، وهذه الهندية كأنها خرجت من جدران معبد فى بنجالور.

وحدة سافارى ...

يمكننى أن أرى الوجه الودود الظريف لعلاء عبد العظيم. اللحية الدوجلاس المحيطة بالفم والعوينات .. بعدما كتبت (سافارى) بأعوام قابلت فنان الكاريكاتور د. شريف عرفة ، فخطر لى أنه علاء وقد خرج من قصصى . كان هذا هو الانطباع الأول

قبل أن يحلق د. شريف لحيته وتتغير ملامحه، لكنه ما زال يحمل نفس الطباع . علاء عبد العظيم مصرى يجمع بين نقطتين: إنه مثقف ثقافة كبيرة وذوقه راق فعلًا ، وفى الوقت نفسه هو ليس مترفًا .. لقد رأى الكثير من (البهدلة) وجلس على مقاه قذرة وأكل شطائر موبوءة وتشاجر فى دور السينما فى شبرا .. أضف لهذا أنه يجيد الفرنسية بحكم كون أبيه مدرسًا بارعًا لهذه اللغة، وهى نقطة جعلته يجد الطريق ممهدًا للعمل بوحدة سافارى ..

ولدت سافارى فى أواخر التسعينيات ..

كان هناك نوعان من القصص يروقان لى دومًا: قصص الاكتشافات والحملات على غرار (كنوز الملك سليمان) و(كونغو) .. إلخ ... والقصص الطبية المثيرة Medical thriller على غرار (خلية أندروميدا) و(غيبوبة). خطر لى أن أصنع نوعًا أدبيًا واحدًا من النوعين.. طب المناطق الحارة المثير .. أو:

Tropical Medical thriller

ولا تحاول البحث عن الاسم فى جوجل، لأن هذا اختراعى الخاص. فى هذا الوقت كنت قد بدأت أتصل بعدد كبير من أصدقائى الذين سافروا لأفريقيا .. بعضهم ضمن أطباء بلا حدود

أو صندوق التعاون الأفريقى .. بعضهم ذهب مرتجلاً يجرب حظه فى جنوب أفريقيا .. بعضهم فى رواندا .. بدأت أتصل بهؤلاء الأصدقاء وكانت لدى كل منهم قصص فريدة . كما أننى قدمت فى ذلك الوقت محاضرة عن الحميات النزفية، وما زال اهتمامى بهذه الحميات قويًا. هناك لمسة منْ سحر القبائل والحروب الأهلية طبعًا. قمت بصنع الخليط وهذه المرة لم يتهمنى أحد بسرقة الفكرة. أعتقد أنه خليط موفق ويلد أفكارًا لا حصر لها.

هكذا ولدت سلسلة سافارى .. ولد علاء عبد العظيم وولدت الوحدة وولد الأطباء مثل شيلبى وبارتلييه وليفى وبرنادت. اخترت الكاميرون لأنها تمثل غرب أفريقيا وأنا أعرف ثراء غرب أفريقيا بالحكايات المثيرة والأوبئة معًا، لكن لو دارت بى الأيام لاخترت سيراليون أو لاخترت قلب أفريقيا ذاته (الكونغو).

عرضت قصة الوباء على الأستاذ حمدى فراقت له .. وطلب منى القصة التالية، وكما هى العادة لم ترق له .. لكنه أحب الثالثة نوعًا وهكذا ..

كانت سافارى منذ البداية تمثل ما وددت لو فعلته فى شبابى ولم أفعله. يمكن القول إن علاء نسخة أكثر شبابًا واندفاعًا وإيجابية من رفعت. مشكلة هذه السلسلة هى أن خلفيتها الطبية قوية جدًا

وقد لا تروق لمن لم يدرسوا دراسة علمية، لكنى حاولت التبسيط الشديد أولًا ، ثم حرصت على أن تكون المعلومات فى فقرات أو فصول يمكن الوثب عليها لمن أراد. قال لى صديق فى كلية الحقوق إنه فهم من العدد (العاشر) أن هناك مرضًا مخيفًا فى ساح العاج، ويحاول علاء مكافحته لكن هناك من يهمهم ألا يفعل !... فيما عدا هذا لم يهتم إلا بالمغامرة ..

لا أنكر أن هناك مرات عديدة أفلتت فيها الأمور منى ، لتصير الجرعة العلمية زائدة جدًا، مما يهدد بتحويل القصة إلى كتاب علمى مبسط . لكن سافارى شهدت ألعابًا كثيرة فى التكنيك، مثل (حكاية ثقب) و(حكايات من الناتال) و(الحادث) .. الدوائر المتداخلة والسرد غير الخطى ... هناك قصة على شكل مسرحية ... إلخ . أعتقد أنها أكثر سلسلة جربت فيها خططًا سردية مختلفة ..

هذا أنا جالس مع د. علاء عبد العظيم وزوجته الكندية الحسناء. هى كائن رقيق وودود يذكرنى بماجى حبيبة رفعت جدًا. إن ماجى وبرنادت تمثلان أفضل وأرقى ما فى الحضارة الغربية، لهذا كان بطلاى محظوظين ... لغة الحوار هى الإنجليزية برغم أن الفرنسية تريحهما أكثر، لكن فرنسيتى سيئة جدًا .. أسوأ من

يابانيتى بكثير ...

برنادت تقدم لى عصير الليمون البارد، ثم تعود لتجلس وتهدهد ابنتها سارة . البيت مريح نظيف برغم أنه ضيق وأثاثه بسيط جدًّا . لا يجب أن يكون الأثاث غاليًا ليكون راقيًا.

هذان زوجان سعيدان بالتأكيد .. لقد استحق علاء السعادة بعد ما عاناه ..

رشفت من العصير ثم سألت علاء:

ـ «أعرف أنك تنتظرنى»

تحسس لحيته وقال:

ـ «بالتأكيد .. طلبوا منى أن أتعاون معك»

ـ «هل يذكرك رقم الثلاثين بشىء ؟»

تبادل النظرات مع برنادت .. ثم قال:

ـ «ثلاثون يومًا من الحمى أو فقدان الوزن أو الإسهال غير المبرر .. هذه من علامات الشك فى مرض الإيدز»

قالت برنادت بلهجة من لن يتوقف أبدًا :

ـ «ثلاثون يومًا من الصيام عند المسلمين .. ثلاثون ساعة صيام

عالمية لمساندة ضحايا المجاعات الرقم الذرى للزنك ... ثلاثون قطعة من الفضة ليهوذا الإسخريوطى .. ثلا.......... »

ابتسمت وهززت رأسى:

ـ «لا أطلب معنى رقم ثلاثين عامة .. أطلب علاقتكما به ..»

تبادل علاء النظرات مع زوجته ووضع ساقًا على ساق، ثم سألها:

ـ «قصة ليريه والمامبا التى حكيتها لى .... تكرر رقم ٣٠ عدة مرات ... ما رأيك ؟»

هزت رأسها فى حماس:

ـ «فعلًا .. فعلًا .. مناسبة جدًّا»

ـ «إذن سأحكى لك حالًا»



- ٢ -

قال علاء:

المدرسة الثانوية ..

هناك جزء مخصص للدراسة العسكرية .. الطوابير والوقوف صفًا وانتباه وسلام سلاح والزحف ... العرق والحر ولمحة مما يراه الجنود فعلًا . ثم جاء اليوم الذى قالوا لنا فيه إننا سوف نخوض تمرينًا بالسلاح .. بالرصاص الحى ..

كانت لهذا إثارة حقيقية، وقد خرجنا إلى ساحة خالية خلف المدرسة. حيث رقد مدربونا على الأرض، وكان على كل واحد منا أن يتقدم .. تنام على بطنك وتصوب على هدف بعيد مكون من دوائر عين الثور المعروفة ..

معظم الطلقات كانت لا تصيب الهدف طبعًا ، وهذا متوقع من طلبة لم يمس أحدهم بندقية من قبل. لكنى شعرت بغصة حقيقية وأنا أرى تلك القوة الهائلة ترتطم بجدار فيتناثر القرميد والدخان ... تصور هذه القوة العارمة تخترق شيئًا هشًا طريًا كاللحم البشرى ..

نمت على الأرض وقمت بتطبيق قاعدة النيشان (سن نملة

الدبانة فى فتحة الشيس) المعروفة، وحبست أنفاسى .. أطلقت الرصاصة فلم يحدث شىء .. لم تخرج رصاصة أصلًا .

نظرت جوارى فلم أر المدرب ..

أين هو ؟ كان واقفًا مع زميل له على بعد مترين يمزحان ويثرثران .

نهضت حاملًا البندقية والرمل يتساقط عن صدرى وثيابى ، ودنوت منه وأنا اقول:

- «البندقية لا تطلق يا فندم»

رآنى فكأنه رأى رأس ميدوسا .. صرخ فى هستيريا وهو يبتعد عنى:

- « أبعد الفوهة عنى ثم تكلم يا أحمـ... ! »

فى اللحظة التالية دوت الطلقة .. بووم ! ..

وشعرت كأن هناك من يدفعنى للخلف ، وكأن كتفى سوف ينخلع ..

عندما فتحت عينى كان الكل متصلبًا ينظر لنا فى ذهول، وكانت البندقية على الأرض والدخان يتصاعد من فوهتها فى براءة

مصطنعة .. كأنها لم تفعل شيئًا ..

سمعت المدرب يصيح:

- « بعد ضغط الزناد قد تظل الرصاصة قابلة للانطلاق ! ... لا تجلبها لى ملوحًا بها فى عينى ، قائلًا إنها لم تنطلق ! »

هكذا عرفت أننى نجوت بمعجزة من قتل إنسان بالرصاص .. كانت هذه ستكون جريمة قتلى الأولى ..

لماذا تذكرت هذه القصة اليوم ؟

★ ★ ★

الحياة فى وحدة سافارى قد تكون رتيبة جدًا ومملة، وقد تكون غاية فى الإثارة. هناك أيام تتمنى فيها لو يتحرك أى شىء ، وأيام تموت فيها شوقًا من أجل استعادة يوم واحد من الأيام الهادئة .

كانت الحياة تمضى عادية بين مشاغبات باركر ، ومضايقات أبراهام ليفى ، ومهمات بارتلييه وهذا السيل الذى لا ينتهى من الجنسيات المختلفة الذين يبقون أيامًا أو يبقون للأبد .. بعضهم بارع وبعضهم أحمق .. بعضهم لطيف وبعضهم وغد ...

توطدت صداقتى بالبعض وتدهورت بالبعض .

كنت سعيدًا مع برنادت فى ذلك العش الهادئ الذى ينأى عن

الصراعات والمشاكل، وكانت سارة هى شمعة صغيرة تضىء ظلمات حياتنا معًا. فى لحظات كهذه وأنا جالس مع برنادت نشاهد فيلمًا جديدًا على مشغل الأقراص المدمجة، ونلتهم البطاطس المحمرة وسارة تزحف على البساط أمامنا. كان يخطر لى أن السعادة هى الاستقرار .. أن تصحو غدًا لتجد هذا كله ..

لست ثريًا .. لى حساب مصرفى لا بأس به فى مصر، لكن كان بوسعى أن أحقق مثله وأكثر لو كنت جراحًا ناجحًا فى مصر .. لم أحقق مكانة علمية مهمة، لكنى سعيد راض . لقد كانت حياتى طيبة ورأيت وتعلمت الكثير، وحافظت على كرامة وطنى .. هذه نقطة مهمة جدًا . كل من عرفنى قال إن المصريين شعب طيب. كل شعب له مزاياه وعيوبه ولديه أوغاده وملائكته، لكنك تحتفظ دومًا بأول انطباع «لأن الانطباعات الأولى تدوم» كما كان ذلك الإعلان فى التلفزيون يقول .

بدأت القصة كما هى العادة فى مكتب المدير فى السابعة مساء. استدعانى بارتلييه للقائه فذهبت متوجسًا. أحكمت إغلاق المعطف ووضعت المسماع على عنقى كما يحدث فى السينما، ثم دخلت وحييت السكرتيرة وتبادلت معها كلمتين ....

كان جالسًا إلى مكتبه مع رجل أشيب فى الخمسين من العمر

تقريبًا. رجل متأنق من طراز الرجال الذين يطلب منى دائمًا أن أساعدهم ويكون فى هذا خراب بيتى .. وكانت جواره امرأة أنيقة أرستقراطية تقاربه فى السن ..

قال لى بارتلييه:

- « أقدم لك د. فرنسوا لى .. لى ..»

قلت فى ملل:

- « فرنسوا ليريه .. معهد باستير .. تشرفنا يا سيدى »

نظر لى المدير فى ذهول وقال غير مصدق:

- « أنت .. أنت تعرفه »

- « لدينا فى اللغة العربية بيت شعر يقول:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا   متى أضع العمامة تعرفونى

بالطبع أعرفه يا سيدى كل طبيب يعرفه فى الحقيقة لم أفعل سوى ما يفعلونه عند الشيوخ المشعوذين عندنا .. المرأة المسنة التى تجلس مع الزبائن وتسأل: « اسمك إيه يا شابة ؟ مالك يا ضنايا » ثم تتسلل لتخبر المشعوذ بهذا، فيندهش الناس ويكبرون عندما يناديهم المشعوذ بأسمائهم . عرفت هذه

التفاصيل من السكرتيرة الثرثارة .. قالت لى إن هناك من يدعى (ليريه) من معهد باستير، ومعه امرأته وهى أفعى مؤذية لا يمكن التفاهم معها ..

قال ليريه:

- « تشرفنا .. حكى لى موريس الكثير عنك »

قال د. بارتلييه وهو يقدمنى للسيدة:

- « مدام ليريه .. إنها طبيبة كذلك »

هذه المرة لم أستطع أن أقاطعه لأقول إنها أفعى طبعًا .. لكن من الجلى أنها مشاكسة مستفزة. نمط الصبى النكدى المزعج ... كانت ترمقنى فى قرف وتعال، فرمقتها فى ضيق واشمئزاز ..

نظرت متسائلًا إلى بارتلييه فقال:

- « د. فرنسوا يدرس نوعًا جديدًا من الفيروسات المخية .. هذا الفيروس ينتشر فى مزارع القصب لدى العاملين هناك، وهو يرغب فى أن يرافقه أحد لأخذ عينات .. يعتقد أن هناك نوعًا من الوطاويط ينقل هذا الفيروس للعاملين»

بالطبع كان هذا دورى فى كل مرة .. هناك ضيف يريد أن يعتصر السحاب فلا بد أن أرافقه . أنا علاء سهل الإرغام .. أنا علاء الأحمق..

عاد بارتلييه يؤكد:

ـ « هو رجل مهم جدًا فى معهد باستير وزميل عمل قديم، وزوجته زميلة عظيمة ، لذا أتوقع منك تعاونًا تامًا »

ثم راح يحدد لى النواحى اللوجستية للعملية. طائرة سافارى .. ممرضتان .. بودرجا طبعًا .. قبائل الكيكويو .. ثلاثة أيام .... أقفاص وطاويط ... أنابيب اختبار...

ـ « هناك أكثر من عشرين حالة ظهرت مؤخرًا .. ليس الأمر مقلقًا .. لكن أرى أن واجب الحذر مهم .. لا يجب أن تتعرضوا لعضات الوطاويط أو بولها .. »

سوف أقرأ هذه الليلة المزيد عن الأمراض التى تنقلها الوطاويط فلا أذكر منها إلا الكلب ..

جلست مع الزوجين ولاحظت بالفعل مَن القائد هنا ..شخص واحد له حرية الكلام واتخاذ القرارات .. وهذا الشخص ليس فرنسوا ليريه .. إن الأزواج الخنوعين يتكيفون مع أنفسهم بعد فترة ويتركون القياد للزوجة المتسلطة، لكنى اندهشت لأن الرجل ما زال يقاوم .. ما زال يملك إرادة حرة ..

نحن الأطباء نعرف أنه عندما تكون مناعة الشخص منخفضة،

فإن المرض يمر دون ملاحظة .. لا تفطن له إلا وقد سيطر على الجسد كله. بينما لو كانت المقاومة معقولة فإن العدوى تعلن عن نفسها ، وترتفع الحرارة وتحدث رجفة وعلامات تسمم . هذا الزوج ما زال يقاوم لذا حياته سيئة جدًا ، بينما لو كان خنوعًا فعلًا لعاش فى سلام .. البلدان التى تم احتلالها دون مقاومة ظلت حياتها هادئة نسبيًا ، بينما البلدان التى قاومت احترقت وعانى أهلها ، لكن هناك دومًا شىء اسمه الكرامة .. لا يقدر المرء على الحياة من دون كرامة مهما كلفه الأمر ..

فى البيت قلت لبرنادت مهمومًا إننى نفيت مرة أخرى .. الأمر مستمر للأبد ... لا بأس .. ثلاثة أيام سوف تجدد الشوق وتهزم الملل. للسفر سبع فوائد لا أذكرها، لكنى أضفت لها حقيقة أنك تكتشف أن حياتك قبل السفر كانت جميلة وتعود لها فى شوق ..

★ ★ ★

تحلق الهليوكوبتر فوق حقول القصب الغنية فى بافوسام.

لم أكن أعرف أن الكاميرون غنية بقصب السكر لهذا الحد، لكن بافوسام على الأقل ثرية فعلًا ... لقد تحولت الأرض إلى عيدان قصب، وصار من الصعب أن تعرف أين تهبط ..

كان المكان يخص شركة كاميرونية كبرى ، وكان هناك مئات العمال ـ معظمهم من الكيكويو ـ لهذا لم نحتج للتعامل مع رجال القبائل . كانوا يعرفون فى الشركة بقدومنا وينتظرون، وأعدوا لنا خيامًا .. وقد فرش (ليريه) كيس نوم له وكيسًا آخر لزوجته .. واقترح على أن آخذ واحدًا لكنى قلت إننى سأتصرف .. لا أحب أكياس النوم بتاتًا ... تعطينى خوف الأماكن المغلقة (كلوستروفوبيا) ..

الزوجة راحت تمارس هوايتها فى إصدار التعليمات والكلام بعصبية والقرف، وكانت تجوب المكان واضعة سيجارة بين شفتيها وقد دست يديها فى جيبى بنطالها. عرفت أننا لن نتفق أبدًا فهى شرسة كالنمور ...

كانت مهمة بسيطة هى أخذ عينات بطريقة عشوائية من العمال .. هناك طرق معقدة للعشوائية يعرفها الإحصائيون على كل حال .

أما أهم ما فى الأمر هو أننى ذقت ألذ قصب عرفته فى حياتى . أنا من مدمنى عصير القصب فى مصر، لكن الحصول على شوب عصير بارد هنا كان طموحًا أكثر من اللازم ، لذا اعتمدت على المعصرة التى أعطانيها الله بين فكى .. كانوا قد أعطونى (ماشيت) كبيرة

وهى قريبة مما نسميه (السنجة). هكذا رحت أجول بين الأعواد وأقطع العود الذى يروق لى .. ثم ..تشرب !.... أقضم .. وألوك وأعصر .. العصير الحلو يبلل لحيتى وصدر قميصى .. لا مشكلة . برنادت ليست هنا لتلطم خديها .. تشرب !....

أنا علاء الشره ...

كنت أعالج بعض الأعواد عندما سمعت صوتًا غريبًا ..

فجأة وجدت من يجذبنى بقسوة بعيدًا ..

كدت أستدير لأحتج لولا أن رأيت الثعبان الذى وثب على يسقط على الأرض وقد أخطأنى ... لم أستطع أن أصدق طوله ...

هتف العامل الأسود الذى أنقذنى:

ـ « مامبا سوداء ! .. احترس دكتور ! »

قالها قبل أن يستدير الثعبان الغاضب نحونا من جديد .. ووثب ..



ـ ٣ ـ

من جديد مر الثعبان جوارى ..

حاول ان تتخيل شيئًا طوله متران .. أى أنه أطول من أى رجل تعرفه، وهذا الشىء يطير فى الهواء نحوك فلا تعرف إلى أين تذهب ..

كان الشىء اللعين يزحف بسرعة ليغوص وسط عيدان القصب، وسمعت (ليريه) يشهق فزعًا ..

كان يراقب المشهد فى ذهول .. بينما هرع العمال الحفاة ذوو السراويل القصيرة يركضون وراء الثعبان .. بهذه الأقدام الحافية سوف يكون قتلهم سهلًا جدًا ...

أنا علاء المحظوظ الذى ينجو من الموت فى كل مرة ...

دنا منى بودرجا وقال لاهثًا :

ـ «هذه هى المامبا السوداء دكتور .. تعيش دومًا فى حقول القصب .. »

تساءل (ليريه) فى رعب :

ـ «لماذا لم ينذرونا بذلك ؟ .. »

هنا اقترب منا رئيس العمال، وهو رجل ضخم ملتح .. يلبس السروال القصير وفانلة داخلية ويحمل (الماشيت) فى يده .. اسمه (بول شخص ما) ... كان يلوك لفافة تبغ، وقد قال وهو يكشف عن أسنان صفراء عملاقة :

ـ « سريعة جدًا .. انقضاضها يطلق عليه (رشقة النار السريعة).. طويلة جدًا كذلك قد يصل طولها لأربعة أمتار »

شعرت بقشعريرة .. فوبيا الثعابين عند كل الناس، وتشعرهم أن الثعبان شىء خارج قوانين الطبيعة ...

عدت أسأل متوجسًا :

ـ «لا أعتقد أنه سام .. إنه طويل جدًا بالنسبة للثعابين السامة.. أعتقد أنه عاصر مثل البوا والأناكوندا»

ضحك الرجل من بلاهتى وقال :

ـ «بل هو من أكثر الثعابين سمية .. يفرغ سمه فيك فى أقل من عشر الثانية لدرجة أنك لن تصدق أنه عضك ! على فكرة لونه ليس أسود بل هو أقرب للبنى »

قال بودرجا فى فخر للمرة الثانية :

ـ « المامبا السوداء دكتور .. تعيش دومًا فى حقول القصب .. »

تساءلت الزوجة العصبية المسيطرة :

- « لماذا حقول القصب ؟ »

- « الإنسان تعدى على موطنها .. وهى تنتقم .. لهذا يموت الآلاف من عضاتها كل عام »

قال رئيس العمال الذى يعرف كل شيء عن المامبا باعتبارها رفيق عمل قديم :

- « هى كذلك تهدد ضحاياها فى الوضع الناشر المميز للكوبرا ..لهذا يحسبها الكثيرون كوبرا ملكية . على فكرة هى تقتل الضحية بالسم ثم تلتف حولها كما تفعل الثعابين العاصرة »

سألته فى رعب :

- « وهل سمها قاتل ؟ »

- « خلال ثلاثين دقيقة .. يشل الجهاز العصبى والقدرة على التنفس »

هى إذن من الثعابين Elapid وليست من الحيات Vipers ... الثعابين سمها عصبى .. أما الأفاعى فسمها يدمر الأوعية الدموية ..

أشعلت الزوجة لفافة تبغ وقالت :

- « قصب سكر وثعابين مميتة ورجال حفاة ... أنتم إذن فى خطر داهم .. يستحيل أن تروا الخطر قبل حدوثه .. ويدهشنى أن بعضكم ما زالوا أحياء »

قال رئيس العمال ضاحكًا :

- « لم يقل أحد إن الحصول على الرزق سهل .. على أن رجالى صاروا خبراء . يعرفون أين يمكن أن تتوارى المامبا .. بل هم يسمعون هسيسها من بعيد .. عيونهم مفتوحة وأسلحتهم مشرعة .. وبرغم هذا نحن نفقد عشرة رجال كل شهر تقريبًا بسببها.. الأمصال لا تكفى وبعضها تالف .. لهذا أرجو ألا تدخلوا مناطق القصب أبدًا .. »

لم نكن فى حاجة لهذه الدعوة ..

من أعماقى كنت أرتجف .. صورة قذيفة الموت التى انطلقت نحوى مرتين لم تفارق ذهنى .. لم أنج إلا لأن الله أراد ذلك ..

ثلاثون دقيقة .. ! .. سوف تضيع ربع ساعة لتفهم ما حدث وتصاب بالذعر .. بالطبع لا يكفى الوقت الباقى لأى شيء .. ما لم يعض الثعبان حامل المصل نفسه !

قال (ليريه) وهو يرتجف حماسة:

ـ «قاتل .. قاتل فاتن فعلا..!»

★ ★ ★

وتفرقنا لنواصل عملنا .. مع أننى صرت بالفعل فى حالة هستيرية لعينة .. رأيت (ليريه) يتكلم مع بعض العمال فلم أفهم ماذا هنالك .. رأيت العامل يهز رأسه موافقًا ..

رحت أنا والزوجة الشرسة نقوم بعملنا، وكان هناك من اصطاد لنا بعض الوطاويط وضعناها فى أقفاص .. حذار من عضتها فلا نريد أن نضيف الكلب – بفتح الكاف – إلى هذا كله ..

كان المساء قد اقترب وبدأ الجو يتلون .. هذا اللون الأزرق الحبيب، لكنه كذلك يخيف .. أن تتحرك فى مكان يعج بالثعابين التى تثب .. هذا شىء مرعب ..

لكن رئيس العمال الذى يدعى (بول شخص ما) وضع كفه الغليظة على كتفى وقال:

ـ «المامبا لا تهاجم إلا نهارًا دكتور .. هناك أفاع ليلية !»

هذا مطمئن .. عندما أموت سيسعدنى أن أعرف أن المامبا ليست من قتلنى بل هى أفعى رقيقة..

على كل حال هذا يوم قد مر من هذه المهمة اللعينة .. سوف ينتهى هذا كله سريعًا ..

رأيت أحد العمال ينادى (ليريه) فيهمس له بشىء ثم يناوله كيسًا من الخيش الغليظ .. هز الرجل رأسه وتوارى بعض الوقت ثم لحق بنا وهو يضحك ..

أشعل الرجال النار والتفوا حولها .. وظهرت زجاجات خمر من مكان ما وراحوا يغنون أغانى الكيكويو، أما نحن فقد جلسنا جوارهم . أردت شرب بعض الشاى فتطوع بودرجا بأن يجده لى .. وظهرت بعض الشطائر ..

سوف نسمر طويلًا ثم ندخل لننام .. لا أعرف كيف أنام بعد كل ما رأيت، لكنى سأحاول . معى مهدئ خفيف لحسن الحظ وسوف أتناول قرصين منه .. ربما جعلنى هذا أنام أسرع ..

فجأة صرخ بودرجا وهو يثب:

ـ «مامبا !»

وثبت بدورى لأرى ثعبانًا طوله يقترب من ثلاثة أمتار يقف على بعد أربعة أمتار وقد نشر جسده وتأهب للوثب .. ! ثعبان سيئ الخلق يهاجم ليلًا ولم ينم مع أقرانه ...

أردت أن أقول شيئًا، لكن فى نفس اللحظة هوى أحد العمال بالماشيت على المامبا فى الثانية التى تأهبت للوثب فيها .. وعندما استطعت أن أرى، وجدت أن الجسد الناشر بلا رأس .. برغم هذا ظل منتصبًا فى وضع الهجوم .. أما الرأس فتدحرج بعيدًا .. تذكرت الهيدرا المخيفة فى الأساطير الإغريقية ..

هوى العامل مرة أخرى على الجسد فتمزق تمامًا .. ثم جاء العمال يسحقونه بأقدامهم الحافية ..

هذا المكان خطر فعلًا.

نهض (ليريه) إلى حيث سقط الرأس المقطوع ... راح يتأمله فى انبهار ثم انحنى ليلتقطه بمنديل ورقى ..

عاد قرب النار ووضعه على الأرض ليراه فى ضوء اللهب ..

قلت له ما معناه:

- « لماذا تحتفظ بهذا الشىء المقرف ؟ »

قال وهو يتأمله فى افتتان:

- « تخيل أن هذا الرأس يحمل الموت .. الموت خلال ٣٠ دقيقة .. هذا شىء مريع »

- « رصاصة البندقية تحمل الموت فى عشر ثانية .. لم ينبهر بها أحد »

- « القوة المفزعة للطبيعة تبهرنى »

جلست الزوجة جواره وطوقت كتفه بساعدها .. لحظة حنان نادرة يبدو أن الليل والحقول والثعابين قد ولدتها فى نفسها .. ومن الغريب أن ظهره تقلص تلقائيًا كأن لمستها بشعة ..

هذان يخوضان آخر أيام زيجتهما .. خطر لى هذا. الزوج ما زال يقاوم أو هو صار يقاوم، ولو لم يقاوم لطالت هذه الزيجة .. هل هناك شابة حسناء فى الموضوع ؟ سكرتيرة أو طبيبة فى المعهد ؟

لا أدرى ..

رأيتها تمسك بيده وتهمس له بشىء ... وهو يهز رأسه ..

ترى ماذا يقولان ؟

ثم نظرت نحو بودرجا العزيز .. لقد بدأ جفناه يثقلان، وهذا غريب بعد هجمة ثعبان .. لا ذكريات تعيش فى ذهن هذا الرجل أكثر من ربع ساعة .. لهذا هو سعيد دائمًا ..

اللهب يتراقص .. والرجال يغنون وقد لعبت الخمر برءوسهم فنهض بعضهم يرقص ويركل الغبار .. بدأت أشرد وأنا أرمق النار..

سارة تغفو فى مكان ما فى حضن أمها ..تحلم .. هل تحلم بى ؟ هى لا تعرفنى أصلًا إلا عندما ترانى .. برنادت الرقيقة هناك ...

(ليريه) يمد يده بعصا، ويعبث فى رأس الثعبان المقطوع شاردًا وهو يصغى لزوجته ..

وفجأة رأيت مشهدًا لا يصدق ..

لقد وثب الرأس المقطوع فى الهواء لينشب أنيابه فى ساعد الرجل !

ـ ٤ ـ

عندما فتحت عينى كان الكل متصلبًا ينظر لنا فى ذهول، وكانت البندقية على الأرض والدخان يتصاعد من فوهتها فى براءة مصطنعة .. كأنها لم تفعل شيئًا ..

سمعت المدرب يصيح:

ـ «بعد ضغط الزناد قد تظل الرصاصة قابلة للانطلاق !... لا تجلبها لى ملوحًا بها فى عينى، قائلًا إنها لم تنطلق !»

★ ★ ★

تحول المكان إلى سيرك ..

راح الطبيب الفرنسى يصرخ ويتلوى، وراح يرقص رقصة الجنون، بينما راح الرجال يحاولون منعه من الحركة كى ينتزعوا الرأس ...

ـ «الغووووووووووووووووووووث !»

وكان صوته قد صار رفيعًا كامرأة تولول. وراحت الزوجة تحملق غير فاهمة ما يحدث. أخيرًا استطاع الرجال أن يلقوا به أرضًا جوار النار والتقط أحدهم غصنًا مشتعلًا من النار فحرق به الرأس ليتخلى عن اللحم .. هذا يذكرنى بطريقة السيجارة

المشتعلة التى يحرقون بها فك سحلية (وحش جيلا) لتتخلى عن اللحم الذى تعضه .. وباستعمال الغصن ألقوا بالرأس فى النار ..

الآن ركع (ليريه) على ركبتيه وراح يعوى كالأطفال .

ركعت جواره وتفحصت الجرح .. الثقبين الكريهين فى لحم الساعد. طبعًا كفوا عن سياسة قطع اللحم بالموسى على شكل صليب وامتصاص السم .. هذا كلام فارغ علمته السينما للناس. يكفى أن تربط الساعد فوق الجرح لتبطئ سريان السم للقلب .. فعلت هذا طبعًا.

قالت الزوجة فى رعب:

-«هذه كارثة .. الرجال تكلموا عن ٣٠ دقيقة قبل الموت !»

قال رئيس العمال فى قلق:

- «أنتم لديكم جهاز لاسلكى فى الخيمة .. اطلبوا هليوكوبتر سافارى فورًا .. قولوا له أن يحضر مصل الثعابين .. سوف نعطيه له هنا»

- «أليس لديكم مصل ؟»

- «لدينا لكنه تالف !»

هرعت الزوجة ركضًا نحو الخيمة وهى تحمل كشاف نيون صغيرًا فى يدها .. وراحت تردد سأفعل سأفعل مكلمة لا أحد ..

عدت أسأل (بول شخص ما) فى شك:

- «هل تصل الهليوكوبتر بالسرعة الكافية ؟»

- «لو كان هناك طيار جاهز فسوف يستغرق ثلث ساعة تقريبًا .. الوقت ضيق لكن لا يوجد سبيل آخر»

الظلام والتوتر والنار المتراقصة ..

لقد انتهى مرح الرجال..

على الأرض يرقد (ليريه) ساكنًا ينظر لنا بعينين خائفتين. العرق يغمر جبينه ... قال همسًا:

- « هل رأيت الرأس ؟ لقد قطع منذ نصف ساعة .. ثلاثين دقيقة ! »

قال رئيس العمال:

- « الثعابين تحتفظ بانعكاساتها طويلًا .. هناك حوادث عن رءوس ثعابين ظلت تقفز وتعض بعد قطعها بثلاثين دقيقة»

كنت قد قرأت عن حادث مماثل . الطباخ الصينى الذى كان يعد

حساء الكوبرا الناشرة لضيوف المطعم. أنت تعرف تلك الأطعمة الصينية العجيبة صعبة التحضير. عامة يأكل الصينيون أى شىء مقرف ويزعمون أن هذا منشط للباءة. كان الصياد قد قطع رأس الكوبرا.. ثم تهيأ ليلقيه فى القمامة بعد نصف ساعة من قطعه، هنا دبت الحياة فى الرأس وأطبق النابان على وجهه. سمع الناس صراخه. ولم تصل الإسعاف إلا متأخرًا بعد ما لفظ الرجل أنفاسه.. هذا درس قاس لم يتعلم منه شيئًا..

لقد حدث الشىء ذاته اليوم..

ثلاثون دقيقة منذ قطع الرأس..ثلاثون دقيقة قبل الموت..

عادت الزوجة من الخيمة، وجلست راكعة جوار زوجها وأخرجت منديلًا وراحت تجفف العرق عن جبينه.. ثم أخرجتْ قنينة عطر وراحت ترش منه على عنقه..

سألتها فى نفاد صبر:

- «هل اتصلتِ؟»

هزت رأسها أن نعم..

كانت الساعة التاسعة مساء.. لابد أن العضة حدثت فى التاسعة إلا سبع دقائق..

- «هل الهليوكوبتر جاهزة؟»

- «قالوا هذا..»

هنا أفرغ (ليريه) معدته على الأرض.. هذه بدايات علامات سريان السم فى الدورة العامة.. وهذا معناه أن إعطاء المصل ضرورة ملحة..

راحت تجفف فمه..

كم الساعة؟... التاسعة والربع..

هل نسمع هدير الهليوكوبتر؟.. لا.. الزوج بدأ يهذى.. هذه علامة لعينة أخرى..

التاسعة والثلث..

هنا لم أعد أتحمل.. فأخذت الكشاف النيون وهرعت نحو خيمة الزوجين قبل أن تعترض الزوجة. جلست على الأرض وبحثت عن جهاز اللاسلكى.. أعتقد أننى أستطيع تشغيله. ولكن..

س س س س س!

صوت كأن هناك أنبوب غاز مثقوبًا.. ما مصدره؟

ثم وقف شعر رأسى.. الصوت آت من كيس النوم...

اتجهت نحو الكيس وتحسسته بحذر .. بالتأكيد هناك شىء ما بالداخل .. شىء أسطوانى حى ! ... لا يقدر على الخروج لأن الزمام (السوستة) مغلق .. لكنه يحاول ...

س س س س س !

عدت لجهاز اللاسلكى وعيناى لا تفارقان كيس النوم.. وحاولت تشغيله :

- « هللو ... هللو .. سافارى .. من معى ؟ »

بعد لحظة صمت جاء الصوت المعدنى :

- «ميشيل .. حوّل Roger »

- «أنا دكتور علاء عبد العظيم .. نحن فى بافوسام .. متى تصل الهليوكوبتر ؟.. حوّل Roger »

لحظة صمت ثم قال الصوت فى دهشة :

- «أى هليوكوبتر ؟ حوّل Roger »

- «لدينا مصاب بعضة ثعبان .. طلبنا المصل .. حوّل Roger »

بعد صمت قال:

- «لم يتصل بنا أحد .. هذا هو الاتصال الأول .. سوف أبلغهم لتقلع الهليوكوبتر حالًا ، لكن لا تتوقعها قبل ساعة .. حوّل Roger »

جف ريقى .. طلبت منه أن يسرع ثم غادرت الخيمة ..

لقد مرت الثلاثون دقيقة .. بل مرت أربعون دقيقة تقريبًا ...

هناك كانوا يقفون حول النار وقد رقد (ليريه) حيث هو .. وكان الآن شاخص البصر جاحظ العينين يسيل اللعاب من فمه، ويردد :

- «الهيدرا ! .. سوف أقتل الهيدرا .. هات سيفك يا برسيوس ... المامبا ترقص السامبا ! ... هه هه ! »

ثم التوى عنقه وراح يردد :

- «هل تلحقين بى يا مارى ؟ .. هلم تعالى يا مارى .. سوف أمهد لك الطريق ! »

وبدأ يغنى أغنية فرنسية ما .. ثم تصلب وأدركت أنه يجاهد للتنفس .. يغرق على اليابسة. لقد شل حجابه الحاجز تمامًا. لون وجهه يتحول للرمادى بسرعة مذهلة. رقدت جواره وحاولت أن أضغط الصدر فى عملية تنفس صناعى ... استمرت كثيرًا جدًا

حتى شعرت بيد رئيس العمال على كتفى وهو يقول :

ـ «كفى يا دكتور .. لا جدوى من غير مصل .. هذه هى المامبا !»

جلست جوار الجثة شاعرًا بالعجز .. وسمعت الزوجة تنهنه باكية ..

لا أعرف متى جاءت الهليوكوبتر .. لقد غرق المكان فى الكشافات وراحت أعواد القصب تهتز يمينًا ويسارًا ... وفى النهاية هبطتْ فى رقعة خالية ووثب منها طبيبان ومعهما جهاز محلول ومحاقن.

لم يكن هناك داع .. لقد مات الرجل فعلًا ..

★ ★ ★

ارتفعت الطائرة من جديد وفى هذه المرة كنا جميعًا فيها، ورأيت العمال ينظرون لنا فى ضوء كشاف الطائرة التى دارت دورة ثم حلقت عائدة إلى سافارى ..

لقد حملنا حاجيات معسكرنا لكنى تركت كيسى النوم وطلبت من الرجال حرقهما دون مناقشة ..

جثة (ليريه) معنا مغطاة بملاءة والزوجة (الباسلة) تجلس جواره والدموع فى عينيها ..

دنوت منها وقلت لها همسًا . وبرغم محركات الطائرة كان بوسعها

سماعى لأننى ألصقت فمى بأذنها :

ـ « لم يتصل أحد بوحدة سافارى حتى التاسعة والثلث .. كنت تكذبين .. لقد حاولت أن تضيعى الثلاثين دقيقة بأى شكل .. وقد نجحت فى ذلك » .

راحت تنظر لى فى توحش وصدرها يعلو ويهبط ولم تتكلم .

قلت لها بذلك الهمس الصارخ عالمًا أن أحدًا لن يميز كلامى :

ـ « على كل حال أعتقد أنه لاقى جزاءه الشعرى .. لقد رأيت كيس نومك وعرفت أنه حبس داخله ثعبان مامبا .. من السهل أن أتصور ما حدث ... لقد أعطى مالاً لأحد العمال هنا كى يصطاد له واحدًا فى كيس من الخيش .. قال له إن الأمر يهمه علميًا. عندما جاء العامل بالكيس فتح زوجك كيس نومك وترك الثعبان المخيف ينزلق خارجًا . هكذا كنت أنت ستنامين ولن تستيقظى أبدًا، وكان سيتخلص من شمطاء مشاكسة مثلك ، ويلقى الجميع اللوم على هذه المنطقة الخطرة التى تعج بالثعابين »

ظلت تنظر لى بذات التوحش كأنها نمر غاضب يطل من وراء قضبان قفصه فقلت :

ـ « بعد ما تعرض للعضة هرعت أنت للخيمة لتتصل .. هنا

رأيت ما رأيته أنا .. كيس النوم مغلق وبداخله ثعبان .. عرفت على الفور الخطة التى دبرها زوجك، وقررت أن ترتكبى جريمة من نوع آخر: التباطؤ . فليمت الأحمق .. لن يلاحظ أحد أننى لم أتصل .. من سيلاحظ إن تأخر الاتصال عشر دقائق أو ربع ساعة ؟ .. لا مشكلة. لحظات من التأخير .. دعى ثلاثين دقيقة تمر ولسوف يأتى لك الانتقام .. أعتقد أن زوجك فطن بعد العضة لما فى القصة من عدالة شعرية، لكنه صعد للسماء وظل ينتظرك متوقعًا أن تلحقى به لكنك لم تفعلى ! .. تذكرى آخر كلماته حول هل تلحقين بى يا مارى .. أنا سأمهد الطريق لك .. الخ ... لابد أنه يشعر بالخديعة الآن »

بعد لحظة صمت قالت:

- « لقد فهمت اليوم كل شىء .. لدىّ مرض البول السكرى لكنى لا أجد الإنسولين فى نفس المكان فى شقتى أبدًا ... اليوم أعرف كذلك حقيقة علاقته بسكرتيرته فى المعهد »

ثم نظرتْ فى عينى وقالت:

- « ماذا تنوى عمله ؟ »

قلت وأنا أرى وحدة سافارى بشكلها المميز يلوح من بعيد ..

الأضواء المتناثرة وأشجار النخيل :

- « لا يوجد شىء أفعله .. لقد بدأ زوجك اللعب بقذارة وتلقى عقابه . ثم إننى لا أستطيع اتهامك بشىء ، ولا توجد محكمة تدينك لأنك تأخرت فى الاتصال »

التمعت ابتسامة نصر على شفتيها فقلت:

- « لقد تعلمت على كل حال أن الانتقام آت لا ريبة .. سوف تدفعين الثمن غاليًا بشكل ما .. ربما بحبيب غادر أو سرطان رحم أو حادث أليم .. »

قالت فى برود:

- « شكرًا لك .. سأحرص على ألا يحدث هذا ! »

وكانت طائرة الهليوكوبتر قد بدأت تهبط .. وتساءلت عما حدث لكيس النوم المغلق.. هل أحرقه الرجال فعلًا، أم أن غريزة (الاستخسار) جعلت أحدهم يجربه ؟ هل دخله أحدهم وماذا حدث بعدها؟ للأسف إن أسئلة كهذه لا تؤرقنا هنا فى سافارى .

خاتمة

هكذا انتهى دكتور علاء من قصته التى تتعلق برقم ثلاثين ..
ربما كانت لديه حكايات أخرى لكن هذا ما جاء بذهنه على كل حال ..

وعندما غادرت أنجاوانديرى أخيرًا كنت أشعر برضا ..

هناك ثلاث حكايات فى جعبتى ، وكل حكاية لها طابع بطلها الخاص .. وأعتقد أن أفضل احتفال أقوم به هو أن أضع هذه القصص الثلاث بين دفتى كتيب صغير أهديه لك ، وأهديه للرجل العظيم الصموت الذى لم يعد بيننا الآن : حمدى مصطفى ..

ترى هل كان سيروق له ؟ يبتسم ابتسامته الخفيفة ويقدم لى قطعة كاراميل ، ويقول :

- « كويسة يا دكتور .. »

أم يبتسم نفس الابتسامة الخفيفة، وهو شارد الذهن . وينظر إلى شاشة المراقبة ليرى ما يدور فى أرجاء مملكته ، ثم يقول لى وهو يشعل لفافة تبغ سابعة :

- « برضه كنت عاوز اعيش فيها اكتر من كده ! »

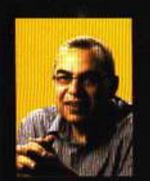
لن أعرف رأى أ. حمدى مصطفى أبدًا ، لكنى أنتظر رأيك أنت ..
كل ثلاثين عامًا وأنت بخير !.

د. أحمد خالد توفيق

تم بحمد الله

رقم الإيداع: ٢٠١٥/٣٥٧٠

روايات مصرية



د. أحمد خالد توفيق



عندما طلبوا منى أن أقدم عددا خاصًا بمناسبة مرور ثلاثين عاما على صدور الروايات، تحمست بشدة ..

كانت المغامرة رقم ثلاثين فى حياة رفعت هى (بعد منتصف الليل) .

المغامرة رقم ثلاثين فى حياة عبير عبد الرحمن هى (عبقرى) وهى محاولة مضنية لاستكشاف عالم دستويفسكى .

المغامرة رقم ثلاثين فى حياة علاء عبد العظيم هى (قصاصات) ، وهى تحكى عن تجربته مع قراءة الوجدان الجمعى لطبيب إسرائيلى .. ترى ماذا يمثله رقم ثلاثين لكل منهم ؟

19/1/015

الثمن فى مصر 5 جنيه
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم



